

التأسيسات الفكرية للطبقة الوسطى "العراق نموذجاً"

أ.م.د. حميد فاضل حسن(*)

اهتم الفكر السياسي في القرنين الأخيرين بدراسة الطبقات على نحو غير مسبوق، وأصبح موضوع التحليل الطبقي المعني بالطبقات من حيث تعريفها، وتحديد موقعها في السلم الاجتماعي، فضلاً عن نوعية العلاقة بين شرائحها وفئاتها المختلفة من حيث الصراع والتناغم، المادة الرئيسة والموضوع الأكثر أهمية في دراسات الفكر السياسي والاجتماعي. ومن بين الطبقات، احتلت الطبقة الوسطى مكان الصدارة في الكتابات الفكرية السياسية، التي راحت، لا سيما منذ وقت مبكر، تبرز دورها في التطورات الهائلة التي عرفها العالم على مختلف الصعد الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولم تتردد هذه الدراسات في اقرار نتيجة حاولت تعميمها، وهي انه لو لا الطبقة الوسطى وحيويتها، بل وتضحياتها لكان العالم لا يزال يعيش تحت ظلام العصور الوسطى. فالعالم المتقدم اذن يدين الى الطبقة الوسطى بكل ما وصل اليه اليوم من تطور وتقدم في العلوم والفنون والآداب.

بيد ان هذه الرؤية الفكرية المؤكدة على أهمية الطبقة الوسطى، اصطدمت وعلى نحو كبير بإشكالية علمية محددة قوامها ان الطبقة الوسطى تمثل تسلسلاً محدداً في سلم الطبقة الاجتماعية، وهذا يعني انها لا توجد مستقلة منفردة عن الكل وهو ايضاً طبقة، تنتظم وتتسلسل المراتب فيها وفقاً لمعايير تختلف من شخص لآخر ومن اتجاه فكري لآخر.

لقد احدث هذا الامر انقساماً بين النظريات الكبرى في الفكر السياسي المعاصر، وتحديدأً الماركسية والليبرالية. وتحلى ذلك في تأكيد الماركسية على الطبقة في الوقت الذي راحت فيه الليبرالية تؤكد على الطبقة الوسطى، وقد عكس ذلك الانقسام حجم الاهتمام الكبير الذي ابدته كل نظرية حول هذا الموضوع.

ان هذه الدراسة تحاول البحث في الاسس الفكرية للطبقة الوسطى، ومن المنطقي ان تكون الطبقة هي اولى هذه الاسس وأكثرها أهمية. وستحاول هذه الدراسة ايضاً ان تقدم نموذجاً

(*) كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد.

تطبيقاً ويتمثل ذلك بالطبقة الوسطى في الفكر السياسي العراقي التي يشهد محاولات حثيثة لإعادة احيائها من جديد بعد سحقها وتهشيمها في العقود الماضي.

اولاً، الطبقة في الفكر السياسي الغربي المعاصر، احتل مفهوم الطبقة مكاناً بارزاً في الفكر السياسي والاجتماعي، وظهرت في دراسته نظريات ومدارس فكرية حاولت الوقوف على الابعاد المفاهيمية والفكرية له. وسنحاول تسليط الضوء عليها وعلى النحو الاتي:

1- تعريف الطبقة، كان مفهوم الطبقة (CLASS) مجال اهتمام العلوم الاجتماعية المختلفة، التي حاول كل منها ان يضع مفهوماً محدداً لها يتناسب والاهداف المعرفية التي يسعى للوصول اليها، والادوات المنهجية التي يمتلكها. ففي علم السياسة لا نجد مفهوماً محدداً متفقاً عليه، بسبب اختلاف النظريات والافكار السياسية -على نحو ما سنرى- في طريقة التعامل وزاوية النظر للمفهوم، ولكن بوسعنا القول ان مفهوم الطبقة يعد احد اهم المفاهيم السياسية التي تعكس طبيعة البناء الاجتماعي السياسي في مجتمع ما.⁽¹⁾

اما بالمعنى الاجتماعي، فتعرف الطبقة على انها مجموعة معينة من الافراد الذين يتقاربون من حيث المواقع (STATUS) والادوار (ROLES) الاجتماعية، ويشاركون في مصالح واهداف، يعونها بنسب متفاوتة. ان تقسيم النشاط الاجتماعي كان وراء ظهور الاصناف المهنية والحرفية. ثم وراء تكون الجماعات المتميزة (الطبقات) داخل المجتمع الواحد.⁽²⁾ اما في اطار علم النفس، فأن احد علماء النفس الأمريكيين البارزين (ت.ه. بير) في كتابه الاختلافات الاجتماعية الانكليزية، يشير الى (ان طبقة الفرد هي جزء من ذاته، وشعور من جانبه بالانتماء الى شيء ما، وارتباط بشيء اكبر من نفسه)⁽³⁾. بمعنى ان الطبقة شعور اولاً (انها جماعة من الاشخاص يشعرون بان هناك صفات وعادات معينة تجمعهم، ولكي يكون الفرد عضواً كاملاً في طبقة اجتماعية يجب ان يشعر انه كذلك، ويجب ان يشعر به الآخرون ايضاً)⁽⁴⁾.

وفي المجال الاقتصادي تعرف الطبقة على انها (عبارة عن تكوين اقتصادي في اساسه بالرغم من انه يشير في النهاية الى الموقع الاجتماعي للأفراد والعائلات المكونين له في مظاهره المختلفة. ان فكرة الطبقة تتطلب او تفترض مسبقاً وجود فكرة اللامساواة، وبالتالي فأنها تتضمن وجود

طبقة اخرى على الاقل, او, وفي النظرة الثنائية, وجود مجرد طبقة اخرى رئيسة الى جانب فئات اخرى اصغر, على اعتبار ان اللامساواة تعتمد اساساً على الملكية⁽⁵⁾.

ان التعاريف اعلاه تتضمن عوامل ومعايير ذاتية وموضوعية تشكل مجموعها اساساً للطبقة اعترفت بها النظريات الكبرى سواء كان ذلك في الفكر الماركسي او الليبرالي, ويمكننا ان نضعها او نصنفها الى نوعين من المعايير وهما:

النوع الاول: المعايير التقليدية, وتمثل بالمعايير الاقتصادية التي تؤكد على الدور الحاسم للملكية وسائل الانتاج في التحليل الطبقي, وقد كانت هذه المعايير جزء من ادوات التحليل للنظريات الكبرى وفي مقدمتها الماركسية والليبرالية وتمثل ب⁽⁶⁾:

-الثروة, كثيراً ما نتحدث عن الطبقات الغنية والطبقات المتوسطة والطبقات الفقيرة, ونتحدث عن طبقة الملاك او طبقة المعدومين وغيرها من الطبقات, ان تحديد كل ذلك مرتبط بالثروة.
-المهنة او الوظيفة, هناك من يعتقد ان المهنة او الوظيفة هي افضل معيار لتحديد الطبقة, وذلك عندما يكون الغرض من ذلك هو الوصول الى تقدير تقريبي لعدد الافراد في كل طبقة اجتماعية.

النوع الثاني: المعايير الحديثة, وتمثل هذه المعايير بالثقافة والتربية واسلوب الحياة, وتغطي هذه المعايير باهتمام متزايد, وينبغي ان نذكر بان اعتماد هذه المعايير للتصنيف الطبقي ليس جديداً ولكنه لم يكن يحظى بالاهتمام المرجو نظراً لطغيان التركيز على المعايير الاقتصادية, الثروة والمهنة, على الدراسات الطباقية للفترة الماضية. لقد اصبحت المعايير المتعلقة بأسلوب الحياة والتربية والثقافة عاملاً مهماً في التحليل الطبقي, ويمكن عد كتابات (بيار بورديو) واطروحته حول الهايتوس⁽⁷⁾ الاكثر اهمية في هذا الاتجاه, ان (بورديو) يضيف بعداً جديداً للتحليل الطبقي من خلال التركيز على عملية الاستهلاك وما يرتبط بها من ثقافة. ويذهب (بورديو) الى ان دراسة ثقافة الاستهلاك تكشف لنا جوانب غامضة في بنية التدرج الطبقي, وتظهر التمايزات الطباقية, اذ ان كل طبقة تمتلك راس مال نوعياً, الهايتوس الخاص بها. فالطبقة البرجوازية تمتلك ميول واستعدادات اكيدة لرسم الحدود بينها وبين باقي الطبقات, عن طريق استهلاك وتذوق السلع والخدمات عالية الجودة والقيمة, وهذه الميول تكتسب بالتنشئة والتعلم, وتتم خبرتها من خلال اساليب الحياة التي يمارسها الافراد في تفاعلاتهم البينية, وفي

مفردات اللغة التي يستخدمونها، وفي ممارسة انواع مخصوصة من الرياضات والهوايات، وفي قضاء اوقات الفراغ في الاستمتاع في الفن والادب والجمال. بمعنى انهم يتذوقون الحياة على نحو يعكس ويؤكد اصولهم الطبقية⁽⁸⁾، وعلى الطرف النقيض يسود الطبقة العاملة نظام للتذوق يسميه (بورديو) تذوق الحاجة (العوز)، في حين يتطلع افراد البورجوازية الصغيرة الى تقليد انماط مشابهة للتذوق البرجوازي، وهذا ما يجعل التذوق نظاماً للتصنيف الطبقي⁽⁹⁾.

وهذا ما اظهرته دراسات عديدة اكدت ان انساق القيم ونماذج السلوكيات ومبادئ التربية تختلف، بوضوح، بين طبقة واخرى، يمكن ملاحظة هذه الاختلافات الثقافية حتى في الممارسات اليومية الأكثر اعتيادية. من ذلك، مثلاً، ما اظهره (كلود وكرستيان غرينيون) من ان الطبقات الاجتماعية المتباينة تناسبها اساليب تغذية مختلفة، التزود من المتجر الكبير الواحد الذي يمكن يعطي الانطباع بتجانس انماط الاستهلاك يخفي اختيارات متباينة. ان العادات المتصلة بتقاليد مختلف الاوساط الاجتماعية هي شديدة الاستقرار في مجال التغذية. وليس مرد ذلك، اساسياً، الى فوارق الطاقة الشرائية، بل ان الممارسات الغذائية لها ارتباط عميق بأذواق تختلف قليلاً، اذ تحيل على صور لا واعية الى تدريبات والى ذكريات طفولة. يبلغ مدى الانقسامات الطبقية حد التمايز في اختيار الخضر واللحوم والغلل واطباق التحلية النهائية، فمن اللحوم ما هو (برجوازي) شأن لحم الضأن او العجل، ومنها ماهو (شعبي) شأن لحم الخنزير ولحم الارنب والمقانيق الطازجة (في فرنسا) وللخضر الطازجة هرميتها هي ايضا المتزاوجة بين ربيعة المقام (الهندباء، الهليون،...) والاكثر فلاحية (الكراث المسمى لدى العامة هليون الفقراء) والاكثر عمالية (البطاطس). ان نمط طهي الاطعمة دال كذلك على الاذواق الطبقية، الاكل، اذاً، طريقة لتعيين الانتماء الى طبقة اجتماعية⁽¹⁰⁾. الهايتوس هو، اذاً، ما يسمح للأفراد بالتوجه في فضائهم الاجتماعي، وتبني ممارسات تتفق وانتماءهم الاجتماعي، واذا كان الهايتوس يجعل بإمكان الفرد ان يبنى استراتيجيات استباقية فان ذلك لا يمنع هذه الاستراتيجيات من ان تكون منقاد بترسيمات لا واعية، (ترسيمات ادراك وفكر وفعل) تتولد عن فعل التربية والتنشئة الاجتماعية التي يخضع الفرد وعن (تجارب ابتدائية) متصلة به ولها (ثقل مفرد) مقارنة بالتجارب اللاحقة⁽¹¹⁾.

لعل معرفة اسس الطبقة بالشكل اعلاه, سيكون مفيداً جداً للكشف عن الفروقات التي تحتاج الى تمييز بين مفهوم الطبقة والمفاهيم القريبة ذات الصلة ومنها:

- الطبقة والفئة الاجتماعية, يتمثل الاختلاف في كون الفئات الاجتماعية تقوم على خاصية اساسية واحدة او مجموعة من الخصائص المتماثلة, فهي تقوم على الحرفة وحدها حين نتكلم عن فئة البنائين او فئة المدرسين او فئة الجنود... الخ, او على وسيلة الحصول على الدخل, فنقول فئة الملاك, او فئة اللصوص, او فئة الاجراء... الخ. وكل طبقة اجتماعية تشمل فئات اجتماعية مختلفة, فطبقة الفلاحين مثلاً تضم الملاك الذين يستغلون ارضهم بأنفسهم الى جانب المستأجرين او العمال الزراعيين, وطبقة العمال تضم عمال المصانع او المناجم او السكك الحديدية. وتنقسم الفئة الاجتماعية بدورها الى فئات اكثر تخصصاً, ففئة الاطباء مثلاً تنقسم الى اطباء رمد(عيون), او باطنيين او اطباء اسنان...¹²

- الطبقة والشريحة الاجتماعية, تعرف الشريحة الاجتماعية بأنها مجموعة من الناس تتكون من نفس الفئة من الافراد والجماعات, ومن نفس المستوى في عملية التدرج الطبقي كالعمال والمستخدمين.... الخ. والطبقات تتميز عن الشرائح الاجتماعية بكونها اوسع, فضلاً على انها ليست قابلة للدراسة الاحصائية, في حين ان الشرائح تقبل هذه الدراسة⁽¹³⁾.

- الطبقة والطائفة, تتميز الطبقة عن الطائفة, فأما على عكس الطائفة ليست مقفلة, واذا كان الانسان منذ ولادته ينتمي بالضرورة الى طبقة معينة فهو يستطيع ان يرتفع منها الى طبقة اعلى, اما اذا كان ينتمي الى طائفة معينة فانه يظل ينتمي اليها طول حياته⁽¹⁴⁾.

- الطبقة والمهنة, ان الطبقة سابقة على المهنة. فالإنسان يولد في طبقة معينة ثم يختار مهنة فيما بعد. كما ان المهنة تؤثر غالباً في اختيار المهنة, وقد يرث الابن مهنة ابيه, كما ان الطبقة الواحدة تضم عادة اشخاصاً من مهن مختلفة, ولذا يمكن ان نقول ان الطبقة اوسع من المهنة⁽¹⁵⁾.

ان الذي نخلص اليه ان مفهوم الطبقة يتميز بالصرامة العلمية, ولهذا احيط باهتمام علمي كبير وواضح من النظريات الفكرية الكبرى في التاريخ, وتحديداً من النظرية الماركسية والنظرية الليبرالية.

2- مفهوم الطبقة في الفكر السياسي الغربي المعاصر، كانت الطبقة ميداناً لأكثر الافكار اهمية في الفكر السياسي، وقد يكون ما تيسر للطبقة من مفكرين كبار بحثوا فيها باهتمام كبير مثل (كارل ماركس) و(ماكس فيبر) العامل المهم في ان تحظى الطبقة باهتمام خاص فاق غيرها من المفاهيم الاخرى. لقد اصبحت الطبقة بفضل هؤلاء المفكرين جزءاً اصيلاً من بناء النظريات الكبرى وتحديداً الماركسية والليبرالية.

أ- مفهوم الطبقة في الفكر السياسي الماركسي، على الرغم من محاولة (ماركس) التقليل من اهمية الاضافة المعرفية الكبيرة التي قدمها في دراسة الطبقات الاجتماعية، بقوله في رسالة ارسلها عام 1852 الى صديقه الشيوعي الالماني (فايدماير)، والذي كان منفياً في الولايات المتحدة الامريكية (في ما يتعلق بي، لا يعود الي فضل اكتشاف وجود طبقات المجتمع الحديث، ولا فضل اكتشاف صراعتها في ما بينها، لقد وصف مؤرخون برجوازيون قبلي بزمان طويل النمو التاريخي لصراع الطبقات)⁽¹⁶⁾، الا ان هذا القول لا يخفي حقيقة ان (ماركس) قد صنع شيئاً جديداً وجذرياً في دراسة الطبقة الاجتماعية.

ان الطبقات برأي (ماركس) موجودة وتعتبر حقيقة موضوعية، مع انها بطبيعتها غير واضحة وغير ملموسة. فليس هناك احد رأى طبقة او شعر بها مع ان مظاهر العلاقات بين الطبقات يمكن رؤيتها والاحساس بها⁽¹⁷⁾. والاحساس متولد برأي (ماركس) من ان الانسان لا يواجه ذاته في ذاته، معزولاً. فالإنسان كائن اجتماعي، والتعبير عن حياته حتى ولو لم يظهر في الصورة المباشرة كتعبير عن الحياة، منجز مع الاخرين وفي الوقت نفسه، هو تعبير عن الحياة الاجتماعية وتأکید لها. ان الاشخاص يعقدون فيما بينهم، بمناسبة العمل، علاقات انتاج وهي تعني ان الاشخاص لا يؤثرون في الانتاج، في الطبيعة وحدها، بل يؤثر ايضاً بعضهم في بعضهم الاخر. فهم لا ينتجون الا بالتعاون بطريقة محددة وتبادل فعاليتهم فيما بينهم، وهم يعقدون فيما بينهم، من اجل الانتاج، علاقات وصلات محددة ولا يقوم تأثيرهم في الانتاج الا في حدود هذه العلاقات وهذه الصلات الاجتماعية⁽¹⁸⁾. ان علاقات الانتاج هي التي تحدد في رأي (ماركس) وجود الطبقات الاجتماعية، فالطبقة عنده (تجمع من الاشخاص يؤدون الوظيفة ذاتها في عملية تنظيم الانتاج، فالأحرار او العبيد او السيد او الخادم، او بجملة اخرى المستغل والمستغل، هي كلها مسميات لطبقات اجتماعية في عصور مختلفة)⁽¹⁹⁾ ويعرف (لينين) الطبقة

وفقاً لقول (ماركس) هذا (يطلق اسم طبقات اجتماعية على تجمعات بشرية كبيرة تتميز بمكانتها في نظام تاريخي محدد للإنتاج الاجتماعي، وبالعلاقاتها بوسائل الإنتاج، وبدورها في طريقته في تلقي نصيبها من الثروة الاجتماعية كما في حجم هذا النصيب. ان الطبقات الاجتماعية هي تجمعات بشرية يستطيع احدها تملك عمل الاخر نتيجة للمكانة التي يشغلها في نظام اقتصادي معين)⁽²⁰⁾. وهكذا تبدو الطبقة لدى اصحاب الاتجاه الماركسي، هي نقطة البدء في مستوى التحليل السوسيولوجي في علم الاجتماع الماركسي. اذ ان الافراد داخل اطار الطبقة انما تتحقق لدى كل واحد منهم مقولات الفكر التي تترسب في اعماق الوجدان الطبقي⁽²¹⁾ وعندما تعمق وجدانياً لدى الافراد تتشكل الطبقة داخل المجتمع. والمجتمع في المفهوم الماركسي في جميع العصور التي مرت بها البشرية منذ نشأته ينقسم حسب ملكية وسائل الانتاج الى طبقتين، احدهما تملك وسائل الانتاج، والاخرى لا تملك الا قدرتها على العمل. وسبب هذا الانقسام يعود الى عدم تكافؤ توزيع المصادر الاقتصادية مما ينتج طبقة مالكة لها ويجعلها مستغلة- حاكمة- متسلطة، في حين الطبقة الاخرى تكون فاقدة للمصادر الاقتصادية والسلطوية داخل النظام العام⁽²²⁾. وهذا الانقسام يكون مبرراً كافياً لاندلاع الصراع بين الطبقتين. ان الصراع هو الطابع السائد على حركة المجتمع الانساني منذ نشأته، هذا ما اعلنه البيان الشيوعي عام 1848 (ان تاريخ كل مجتمع الى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ النضال بين الطبقات، فالحر والعبد، والنبيل والعامي، والسيد الاقطاعي والقن، والمعلم والصانع، اي باختصار اي المضطهدون والمضطهَدون كانوا في تعارض دائم، وكانت بينهم حرب مستمرة تارة ظاهرة وتارة مستترة، حرب كانت تنتهي دائماً اما بانقلاب ثوري يشمل المجتمع بأسره، واما باختيار الطبقتين المتناضلتين معاً)⁽²³⁾

يؤدي الصراع الى ان تستولي الطبقة الاقوى على جهاز القمع والاكراه الذي هو الدولة لإخضاع الطبقات الاخرى، وتسير شؤون المجتمع لخدمة مصالحها الطبقية، في هذا يقول (لينين) (ان الدولة لم تكن موجودة على الدوام، فقد مر زمن لم يكن للدولة وجود، فالدولة تظهر حين يظهر انقسام المجتمع في طبقات، عندما يظهر المستثمرون والمستثمرون، وبمقدار ما ينشئ انقسام المجتمع الى طبقات، ويتوطد بمقدار ما ينشئ المجتمع الطبقي وتنشئ الدولة وتتوطد)⁽²⁴⁾

في عصر الطبقة المسيطرة، عصر البرجوازية فان(المجتمع اخذ في الانقسام اكثر فاكثرا، الى معسكرين فسيحين متعارضين، الى طبقتين كبيرتين، العداء بينهما مباشر-هما البرجوازية والبروليتارية)⁽²⁵⁾ وان المجتمع البرجوازي الحديث، الذي نشأ على انقاض المجتمع الاقطاعي، فانه لم يقض على هذا التناحر بين الطبقات، بل اقام طبقات جديدة بدلاً من القديمة، ووجد ظروفًا جديدة للاضطهاد واشكالا جديدة للنضال)⁽²⁶⁾ ان الطبقة البرجوازية المسيطرة تعيش(في حالة حرب مستمرة، في بادى الامر، ضد الارستقراطية، ثم ضد تلك الجماعات من البرجوازية نفسها التي تتناقض مصالحها مع رقي الصناعة، وبصورة دائمة ضد برجوازية الاقطار الاجنبية جميعاً. وترى البرجوازية نفسها مضطرة، في كل ميادين النضال هذه، الى الالتجاء للبروليتارية وطلب معونتها، فتجرها بذلك الى مضمار الحركة السياسية، وهكذا تقدم البرجوازية يديها الى البروليتاريين عناصر ثقافتها، اي انها تسلمهم السلاح الذي سيحاربونها به)⁽²⁷⁾ وهي بذلك تنتج (قبل كل شيء حفاري قبرها، فسقوطها وانتصار البروليتارية كلاهما امر محتوم لا مناص منه)⁽²⁸⁾ وما ان تعلن البروليتارية عن انتصارها الحتمي حتى تعمل على ازالة الفوارق الطبقيّة(وما ان تختفي هذه الفوارق وتزول خلال سير التطور، ويصبح كل الانتاج متمركزاً في ايدي جمعية واسعة، تشمل الامة بأسرها، حتى تفقد السلطة العامة صبغتها السياسية. اذ ان السلطة السياسية بالمعنى الصحيح هي السلطة المنظمة لطبقة من اجل اضطهاد طبقة اخرى ، فاذا كانت البروليتارية، في نضالها ضد البرجوازية، تبني نفسها بواسطة الثورة طبقة حاكمة، تخدم بالعنف والشدة علاقات الانتاج القديمة، فأثما بهدمها علاقات الانتاج القديمة تخدم في الوقت نفسه ظروف وجود التناقض والتناحر بين الطبقات وتخدم الطبقات بصورة عامة، وبذلك تخدم ايضاً سيادتها ، ذاتها من حيث هي طبقة)⁽²⁹⁾.

وعلى الرغم من هيمنة مفهوم (ماركس) للطبقة والصراع الطبقي على الاطار الفكري للنظرية الماركسية، الا ان التطور التكنولوجي الذي عرفه العالم بعد رحيل (ماركس)، وازدهار البرجوازية قدرة عالية على معالجة الازمات الناشئة في بنيتها الرأسمالية، والتكيف مع الظروف المستجدة في العمل، حقّر مفكرين ماركسيين اخرين على تطوير مفهوم (ماركس) هذا للطبقة . ويعد المفكر الايطالي (انطونيو غرامشي) ابرز من مثل اتجاه التطوير في النظرية الماركسية وخصوصاً في مفهومها للطبقة والصراع الطبقي. ان المعطى الاول الذي يفترضه التحليل

العلمي للمجتمع وتاريخه لدى (غرامشي) ليس هو المعطى الاقتصادي، كما هو عند (ماركس)، بل هو الانسان بوصفه كائناً ثقافياً، وفاعلاً اجتماعياً، يكتسب وجوده الانساني فعلاً من اجتماعه بالآخرين في اطار علاقات تفاعل وتواصل وتبادل وتفاهم وصراع وتعاون، اي في اطار علاقات منتجة للثقافة والحضارة⁽³⁰⁾. ولهذا يحذر (غرامشي) في هذا الاتجاه من ميل النزعة الاقتصادية في الماركسية الى ارجاع المصالح الطبقيّة للطبقات الاجتماعية، ومن ثم اهدافها وطابع سلوكها في ميدان الصراع الطبقي الى محض مصالح اقتصادية آنية ومباشرة لشريحة معينة من شرائحها⁽³¹⁾. ان العامل الاقتصادي في رأي (غرامشي) لم يعد محور الصراع الطبقي، وانما العامل الايديولوجي، وكان ذلك نتيجة اعتماد الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة على الهيمنة الفكرية، كبديل عن استخدام العنف، وتلاشي التفاوت الظاهري بين القاعدة والتركيبية الفوقية، وتناسق العلاقات بين مختلف الاطراف بالشكل الذي يجعل العملية الثورية عملية كلية. بمعنى انها لم تعد تركز على العامل الاقتصادي والاستيلاء على السلطة، كعامل حاسم للانتقال الى التشكيلية الاشتراكية. فضلاً عن في هذه المجتمعات اصبحت الطبقة البروليتارية تضم اصنافاً عديدة متفاوتة اجتماعياً وفكرياً. كما انها تتعرض الى تطورات تكنولوجية، ويتسع بها العلم في حقل الانتاج، فضلاً عن تغلغل انماط متفاوتة من البيروقراطية، كما تتسع في هذا المجتمع ثقافة جماهيرية تجعل المستوى الوسطي يغلب فيه. لقد ادرك (غرامشي) هذه العوائق جاعلاً منها العامل الحاسم للتحويل الاجتماعي. ومن هنا يبرز الاختلاف بين (غرامشي) و(ماركس) لمسالة النضال الثوري، فالصراع الطبقي تحول هنا الى صراع فكري ينصب في التعرض لأسس المجتمع البرجوازي الفكرية والادبية والاخلاقية⁽³²⁾.

ان ما تقدم يثبت ان الطبقة وصراعاتها مقولة رئيسة للنظرية الماركسية، مثلت عنصراً مهماً من عناصر تحليل التاريخ ورصد حركته وصولاً الى بلوغ غاياته، فالطبقة في المفهوم الماركسي النقطة التي انطلقت منها حركة التاريخ من خلال الفعل الانساني، وعندها ايضاً ستتوقف ببلوغ الختمية النهائية، وهي الوصول الى المجتمع الخالي من الطبقات، مجتمع الحرية والمساواة.

ب- مفهوم الطبقة في الفكر السياسي الليبرالي المعاصر. مثلت اطروحات النظرية الماركسية في التحليل الطبقي دافعاً فكرياً مهماً للفلاسفة والكتاب الليبراليين لصياغة اطروحات فكرية

تعالج موضوع الطبقات، وما يرتبط بها من مفاهيم وقضايا بمنظور مختلف عن ذلك الذي طرحه (ماركس) وانصاره. ويمكننا ان نشير هنا الى نموذجين فكريين ليبراليين في هذا الاتجاه:

1- دراسات (ماكس فيبر)، انطلق (فيبر) في دراسة مفهوم الطبقة من الدراسة الاقتصادية لـ (ماركس) التي ترى ان الطبقة لا يمكن فهمها الا من خلال التعارض بين راس المال والعمل، فوجود هذا التعارض يؤدي الى وجودها، ولكن استمرارية وشدة احتدامه سيؤدي بلا شك الى الغائها، وهذا هو القدر المحتوم والتطور الموضوعي لمسار التاريخ⁽³³⁾. وعلى العكس من ذلك درس (فيبر) مفهوم الطبقة على مدار التاريخ وليس فقط الى العصر الحديث، فالرأسمالية بالنسبة اليه موجودة منذ القدم، فالفترة التي كانت تعرف اشكال غير منظمة من التصرفات والسلوكيات الاجتماعية كالنهب والسرقة والحروب... الخ، هي شكل من اشكال النشاط غير العقلاني تحولت مع التطور الاقتصادي للأفراد الى تصرفات عقلانية تحكمها قوانين. الطبقة لدى (فيبر) مفهوم لا اجتماعي في جوهره، فالطبقة ناتجة من وضع اقتصادي وتنشأ حتى تصبح فرص مجموعة من الناس متشابهة في سوق العمل : فرص الحياة والقدرة على تملك الاصول، وشراء السلع والخدمات، التعرض للظروف نفسها في سوق العمل. حين يحدث ذلك لمجموعة من الناس فانهم يؤلفون معا طبقة من الناس، يتحدد وضعها بالنسبة الى الطبقات الاخرى وفقا لحالة السوق⁽³⁴⁾. ومع انه يرى ان الطبقة تتكون بفعل المتغيرات الاقتصادية الا ان وجودها يؤدي الى وجود انماط جديدة من الفعل الاجتماعي والسياسي. اعتمد (فيبر) على الملكية الاقتصادية وعلى طريقة توزيع سلطة من الملكية المادية، فقسم الطبقات الى ثلاثة وهي⁽³⁵⁾:

__ الطبقة ذات الملكية، وهي عند فيبر تعتمد على امتلاك رصيد معين (منجم، ارض، مواش، عبيد) دون ان تتولى تشغيل هذا الرصيد فهي تؤجر هذه الارصدة، مستدرة الربوع. اي انها مالك لوسائل الانتاج .

__ الطبقة المنتجة، هي منظمة للعمل او مساهمة فيه (الانتاج)، من دون ان تكون، بالضرورة، مالكة لأدوات الانتاج المستخدمة، اي انها منظمة انتاج مادي (سلعي) مستدرة الربح الرأسمالي الاصلي.

__ الطبقة الاجتماعية حسب تعبير فيبر، فهي خلافاً للأولى والثانية، لا تملك وسائل مادية لتأجيرها، ولا تستأجر هذه الوسائل لإنتاج سلع مادية، إنما تباع الخدمات اعتماداً على التعليم (المعرفة المنظمة) أي أنها خدمية، بياعة معلومات.

اعتبر (فيبر) أن وضع الفرد في طبقة اجتماعية عالية أو رفيعة يسمح له أن يكون له جاه ومكانة عالية، وقد يستطيع من خلال وضعه المالي الجيد أن تكون له حظوة سياسية، لكنه لاحظ أن الثروة ليست المحدد الوحيد للتموضع الطبقي داخل المجتمع، ولذلك اضاف لها ابعاداً ثقافية واجتماعية كالتعليم والمعرفة والخبرة والشرف، وهوما يضيفي على مفهوم الطبقة بعداً اوسع، ما يسمح بوجود مجموعات داخل الطبقة تضع الفئات ذات المكانة أو الواجهة الاقتصادية أو الاجتماعية في مكانة اسمي، وتندرج الى ان تصل الى ادنى الهرم الاجتماعي⁽³⁶⁾.

2- دراسات النخبة، بعد ان كانت كلمة النخبة تستخدم في القرن السابع عشر لوصف سلع ذات تفوق معين، وامتد استعمالها فيما بعد للإشارة الى فئات اجتماعية متفوقة كالوحدات العسكرية الخاصة والطبقات العليا من النبلاء، ظهرت بقوة في نظرية النخب التي تبلورت في مطلع القرن العشرين كرد فعل نظري في مواجهة خطر هيمنة المفاهيم الماركسية في علمي الاجتماع والسياسة، وعلى ذلك فهي منذ ظهورها وضعت نفسها في مواجهة واضحة مع الماركسية⁽³⁷⁾.

ويمكن من خلال تحليل مقولات رواد هذه النظرية التمييز بين اربعة اتجاهات اساسية، تناولت موضوع النخبة بالدراسة والتحليل وهي⁽³⁸⁾:

-الاتجاه الاول: الاتجاه التنظيمي، الذي يمثل (جيتانو موسكا) و (روبارت ميشالز)، يرون ان النخبة تمتلك القوة من قوة تنظيمها وقلتها.

-الاتجاه الثاني: الاتجاه السيكولوجي، الذي يمثل (فلفريدو باريتو)، الذي ارجع مصادر القوة عند النخبة الى الخصائص السيكولوجية.

-الاتجاه الثالث: الاتجاه الاقتصادي الذي يمثل (كارل مائهايم)، يمثل محاولة للمزاوجة بين الرؤية الماركسية والنخبوية، والذي يرجع مصدر القوة الى حصول الاقلية على الموارد الاقتصادية من خلال القوة الادارية.

-الاتجاه الرابع: الاتجاه النظامي يمثل (سي.رايت ميلز)، ويرى ان قوة النخبة في الاوضاع النظامية الرئيسة التي يمتلكها اعضاء المجتمع.

تمكنت النظرية الماركسية من التأثير في مفكري النخبة الاوائل وكانت باعث حقيقي لهم وهم يصوغون نظرياتهم النخبوية التي ترى ان عقل النظام السياسي لا يكون الا انطلاقاً من تحليل الواقع الطبقي للمجتمع، والنظر الى الحاكمين كتجسيد لهيمنة طبقة على بقية الطبقات، وبالتالي النظر الى النظام السياسي كانعكاس للصراع الطبقي.

ويمكن ملاحظة ذلك في نظرية التباين التي ادت دوراً كبيراً في علم اجتماع (باريتو)، الذي رأى ان المجتمع ليس متجانساً بحكم اختلاف الناس عن بعضهم جسماً وعقلاً وخلقاً، واذا ما شئنا دراسة الظواهر الواقعية فعلياً اخذ ظاهرة الاختلاف وعدم التجانس هذه بنظر الاعتبار، لان التباين الجذري في منتظمات القيم الخاصة بالأفراد لا يسمح باي حال من الاحوال باعتبار المجتمع كما لو كان شخصا واحداً. كما كان (باريتو) يستخدم تعبير التباين الاجتماعي للإشارة الى حقيقة ان كل المجتمعات المعروفة تتضمن فصلاً او تعارضاً بين جمهور الافراد المحكومين والعدد الصغير من الافراد الحاكمين المهيمنين الذين يدعون بالنخبة. واذا ما كان التمايز بين الطبقات يبدو اساسياً في علم الاجتماع الماركسي فان التمايز بين الجماهير والنخبة يبدو حاسماً في علم اجتماع (باريتو)⁽³⁹⁾. ويطلق (موسكا) على هذه القلة اسم الطبقة السياسية بدل النخبة في دلالة واضحة على تأثره بالماركسية، ان اهم مبدأ عند (موسكا) هو القلة التي تتمتع بها الطبقة والتي تمنحها نوعاً من التنظيم الذي لا تتميز به اغلبيه افراد المجتمع، كلما كبرت الجماعة قل تماسكها وكلما قل حجمها ازدادت تماسكها⁽⁴⁰⁾.

وعلى الرغم من هذا التقارب بين الاتجاهين الا ان ذلك لم يمنع اصحاب الاتجاه النخبوي من تقديم انتقادات الى الماركسية كنظرية، وبالذات للطبقة كإطار للتعامل مع قضايا المجموعة المسيطرة على الجهاز السياسي للدولة. ويمكن اجمال هذه الانتقادات في الاتي⁽⁴¹⁾:

أ_ قضية الطبقة السائدة سياسياً، وهو ما يعبر عنه احياناً بالطبقة السياسية في مفهوم نظريات النخب السياسية، وهو تعبير خاص، وينصب الاعتراض الاساسي على النظرية الماركسية في هذا الخصوص على انها تفترض وحدة الطبقة السائدة اقتصادياً والطبقة السائدة سياسياً، في حين ان الامر ليس كذلك دائماً، كما لاحظت نظريات النخبة. ومن هنا كانت

المحاولات المختلفة لصياغة مفهوم للطبقة لا يمت للمفهوم الماركسي بصلة. ويضاف الى هذا الاعتراض الاساسي اعتراض تيار ما يسمى بالتحولات في النظام الرأسمالي، الذي يرى انه لا يمكننا في الوقت الحاضر ان نقول ان هناك طبقة سائدة اقتصادية. لهذا يقتضي اللجوء الى تفسيرات اخرى لأساس السلطة السياسية.

بـ قضية جهاز الدولة والبيروقراطية، فهذه النظرية ترى انه وفقاً للمفهوم الماركسي تتركز كافة الوظائف السياسية من الناحية الواقعية في يد الطبقة السائدة اقتصادياً وسياسياً، ويمارسها عملياً اعضاء هذه الطبقة ذاتها، غير انه اذا كانت الطبقة الاقطاعية تجمع بين وظائف الحكم السياسية والادارة العامة والوظائف العسكرية.... الخ، فليس هذا هو واقع الحال بالنسبة للبرجوازية، ومن هنا كان اللجوء لتفسير هذا التباين الى مفهوم ينظر الى وجود جهاز الدولة ذاته باعتباره اساس السلطة السياسية، واذا يخلط هذا المفهوم بين سلطة الدولة وجهاز الدولة فانه يضفي بذلك على بيروقراطية الدولة سلطة خاصة، ومن جهة ثانية، ترى تلك النظريات ان الدولة في مفهوم النظرية الماركسية تعمل كمجرد اساس لسيطرة الطبقة السائدة، وهو مفهوم يحرم النظرية الماركسية من امكانية بحث الاستقلالية النسبية للبيروقراطية ازاء الطبقة السائدة، ومن هنا كان لجوء تلك النظريات الى اضعاف سلطة سياسية مستقلة على البيروقراطية، سلطة موازية للسيطرة الطبقيّة السياسية او الاقتصادية فهذا هو في رأي تلك النظريات السبيل الوحيد لتفسير نشاط البيروقراطية المتميز.

جـ فيما يتعلق بالصراع الطبقي، تورد نظرية النخب ملاحظتين حول رؤية النظرية الماركسية: الاولى، الخطأ في الايمان بان الصراع الطبقي يتحدد بالأساس بالعامل الاقتصادي او بالصراعات التي تنجم عن ملكية ادوات الانتاج، بينما ان السيطرة على الدولة او القوة العسكرية يمكن ايضاً ان يكون اساس الصراع والتعارض بين النخبة والجماهير.

الثانية، ان النظرية الماركسية اخطأت في الايمان بان الصراع الطبقي المعاصر يختلف جذرياً عن الصراع الطبقي الذي يمكن ان نلاحظه عبر العصور، وان انتصار البروليتارية سيضع نهاية له، فالصراع الطبقي المعاصر هو صراع بين البروليتارية والبرجوازية سينتج عنه انتصار من يتحدثون باسم البروليتارية وليس البروليتارية، اي اقلية متميزة لا تختلف عن النخب التي سبقت او التي ستعقب.

نخلص مما تقدم ان مفهوم الطبقة في الادبيات الليبرالية، يبدو متأثراً، وايضاً مهتماً الى حد بعيد بما صاغته النظرية الماركسية في هذا الاتجاه، فبدت افكاره تبدو كما لو كانت رد فعل على ما كتبه النظرية الماركسية في التحليل الطبقي، وانشغل الفكر الليبرالي في كثير من الاحيان على الرد على هذه الافكار الماركسية ومهاجمتها، الامر الذي افقده الكثير من الابداع والتميز بالقياس الى ما قدمته الماركسي .

ثانياً، الطبقة الوسطى في الفكر السياسي المعاصر، شكلت الدراسات حول الطبقة الوسطى، محوراً مهماً من محاور الفكر السياسي، وهي كمفهوم الطبقة لم تقتصر دراستها على نظرية فكرية دون اخرى، ولكن بالتأكيد اختلفت النظريات في حجم التعاطي مع مفهوم الطبقة الوسطى، فالنظرية الماركسية بحثت فيه ولكن بدرجة اقل من النظرية الليبرالية التي اعتبرته الاساس في التطور السياسي والاقتصادي.

1- تعريف الطبقة الوسطى، على الرغم من سعة انتشار مصطلح الطبقة الوسطى في الدراسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، الا ان مسألة تعريفه تعاني من تحديات معرفية كبيرة، فهو في نظر البعض مصطلح هلامي وفضفاض ويفتقد الى الدقة العلمية⁽⁴²⁾. وفي تقديرنا ان ذلك يعود الى مستويين من الاسباب:

المستوى الاول، الاسباب العامة، وترى ان تعريف الطبقة الوسطى - حالها حال الطبقات الاخرى - من اصعب الامر، ليس الان فحسب، بل منذ القدم، والسبب ان المجتمع ظاهرة حركية لا تلبث على حال، وسلم الطبقات دائب الحركة، كان الامير يؤسر فيتحول الى عبد. بل ان (افلاطون) نفسه، وهو سليل اسرة نبيلة جداً قصد دكتاتوراً ليقنعه بجمهوريته فاستعبده وباعه. فجمع اصدقاءه الفدية وحرروه. وهكذا فان جدلية الحياة تصنع الاوساط في كل شيء، فمعاينة الطبقة الوسطى من اشق الامور⁽⁴³⁾.

المستوى الثاني، الاسباب الخاصة بالطبقة الوسطى ذاتها، فتعترض مهمة التعريف صعوبات تتعلق ببناء الطبقة الوسطى، وتتمثل في⁽⁴⁴⁾:

- الافراد المكونين للطبقة الوسطى، حيث تضم هذه الطبقة افراداً عديدين من طبقات مختلفة فهي تضم صغار التجار وصغار الملاك وصغار الضباط والموظفين والطلبة....

-الاعمال والحرف او المهن التي تتضمنها الطبقة الوسطى, فقد شاعت التسمية الجمعية للطبقة الوسطى من مجموع حرف واعمال شكلت في بعضها اعمالاً متنافرة لا تتلاءم مع صيغة المجموعة التي وضعت في اطار الطبقة الوسطى.

ان هذه العقبات دفعت بالبعض الى انكار وجود طبقة واحدة, وانما الحديث عن طبقات عديدة. (فهناك طبقة متوسطة تقليدية وطبقة متوسطة حديثة. وهناك طبقة متوسطة تجارية وطبقة متوسطة مثقفة, وطبقة متوسطة مهنية, وطبقة متوسطة ادارية وطبقة متوسطة للأقليات والاجانب, وهناك طبقة متوسطة حضرية وطبقة متوسطة ريفية)⁽⁴⁵⁾

وبعيدا عن الدخول في تفاصيل هذه الآراء, وابداء موقف ازاءها رفضاً او قبولاً, نشير الى الوصف العام للطبقة الوسطى, وهو انما في الاساس تستمد اسمها من دورها الوسيط بين الطبقات الاجتماعية, فتكون وسطى في المجتمع بين الطبقات الكبرى, اذهي وسطى بين البرجوازية والطبقة العاملة في المجتمع الرأسمالي, وهي وسطى بين الاغنياء والفقراء في المجتمعات الريفية والمدينية, وهي وسطى بين اغنياء الريف و فقرائه, وهي وسطى بين المجتمع والدولة, وهي في المحصلة الاحمالية التي تحتل مكان الوسط في عالم متناقض الادوار والمصالح في اي مكان وفي اي مستوى كان⁽⁴⁶⁾. لقد قدمت للطبقة الوسطى تعريفات عديدة, هي في حقيقتها ليست بعيدة عن بعضها في الاطار العام, ولا بعيدة عن بعضها في تحليل الطبقة الوسطى وتشرحها. ولهذا سنعمد هنا الى تبني التعريف الذي قدمته منظمة الامم المتحدة(اسكوا) في تقرير لها حول الطبقة الوسطى في الوطن العربي في عام 2014, وينطلق هذا التقرير من افتراض ان اي بحث موثوق في مسألة مثيرة للجدل كالطبقة الوسطى لا بد له ان يعتمد نهجاً متعدد التخصصات اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً, لان ترابط هذه الابعاد يتيح فهم اعمق للديناميات الكامنة وراء نمو الطبقة الوسطى وازمحلها, ويكمن التحدي في صياغة بحث متكامل فيه هذه المقاربات التحليلية بدلاً من ان تتنافس. وعلى اساس هذا الافتراض تقدم الوثيقة تعريفين للطبقة الوسطى, هما⁽⁴⁷⁾:

التعريف الاول, ينطلق من المنظور الاقتصادي, فيحدد الطبقة الوسطى بالأفراد الذين يتراوح مستوى دخلهم او انفاقهم بين عتبتين نقديتين, بغض النظر عن خصائصهم الاجتماعية. ومن هذا المنظور يصنف الافراد حسب درجة الحرية التي يتمتعون بها للاستهلاك. وعلى نحو اكثر

تحديداً، تحدد الطبقة الوسطى على انها تشمل الافراد الذين يتخطى مجموع انفاقهم خطأً للفقر يكون محدداً بشكل مناسب، ولا يتجاوز انفاقهم على السلع والخدمات غير الاساسية قيمة خط الفقر المحدد. ويستخدم هذا التقرير مصطلح الطبقة الوسطى للأفراد الذين ينطبق عليهم هذا التعريف الاقتصادي، واستطراداً، يعتبر الميسورون في المجتمع اولئك القادرين على تخصيص حصة اكبر من دخلهم للأففاق على عناصر غير اساسية (وفقاً لسلة السلع والخدمات التي تستهلكها الطبقات الادنى الأكثر حاجة).

التعريف الثاني، يحدد الطبقة الوسطى من المنظور الاجتماعي، بالاستناد الى مجموعة من الخصائص الاجتماعية، بغض النظر عن مستوى الرفاه المادي او الدخل او الانفاق. وعلى نحو اكثر تحديداً تضم الطبقة الوسطى العاملين في القطاع العام او الخاص في فئة الوظائف المكتبية (التي يطلق عليها ايضاً وظائف ذوي الباقات البيضاء) ويملكون مؤهلات تعليمية او ثانوية اعلى.

والطبقة الوسطى بهذا المعنى، هي في الحقيقة خليط واسع متعدد وغير متجانس من الافراد والجماعات، ولهذا فانه عند معالجة مشكلات هذه الطبقة او تحليل مواقفها واتجاهاتها ازاء قضية ما، يميل الباحثون الى تقسيم هذه الطبقة الى ثلاث شرائح، وهي (48):

- الشريحة العليا من الطبقة الوسطى، ويمثل افرادها النسبة الاقل في كتلة هذه الطبقة، فتضم: العلماء والباحثين واساتذة الجامعات والمعاهد العليا والمديرين واصحاب المهن المتميزة كالأطباء والمهندسين والقضاة والمحامين وكبار ضباط القوات المسلحة والبوليس والفنيين العاملين في قطاع المعلومات. واعضاء هذه الشريحة يحصلون عادة على دخول مرتفعة وذات طابع متغير، ويتميز نمطهم الاستهلاكي بالتنوع والغنى وباشتغالهم على قدر كبير من رموز الاستهلاك الترفي بسبب الفائض الكبير الذي تنطوي عليه دخولهم. وغالباً ما يوجد بين اعضاء هذه الشريحة من يملكون او يشتركون في ملكية وسائل الانتاج الزراعي او الصناعي، وتوجد لديهم ثروات مادية ومالية متنوعة، من هنا فان دخول هذه الشريحة لا تنبع من المرتبات فحسب التي يتقاضونها من اعمالهم المهنية، وانما قد تشمل على ايجارات وفوائد وارباح. وغالباً ما تفرز هذه الشريحة الكتاب والفنانين وقادة الرأي والزعماء السياسيين، كما ان هذه الشريحة اكثر قرباً للسلطة ولصناع القرار الاقتصادي والسياسي، ويحتلون مواقع مهمة في اجهزة الدولة.

- الشريحة المتوسطة من الطبقة الوسطى، تضم من حيث الحجم عدداً أكبر من الافراد بالمقارنة مع الشريحة العليا، ويعمل افرادها بمرتبات ثابتة او شبه ثابتة، ويشغلون الوظائف الادارية والفنية والاشرفية في الوزارات والاجهزة والمصالح الحكومية وادارات الحكم، مثال ذلك المدرسين والموظفين في شركات القطاع العام، والمشتغلين في البنوك وشركات التأمين والمؤسسات التجارية، ومن يعملون بالخدمة الشخصية لحساب انفسهم. وافراد هذه الشريحة يمكن تصنيفهم على انهم من ذوي الدخل المتوسط، ويغلب على مستوى تأهيلهم انهم من خريجي الجامعات او المعاهد العليا او المتوسطة، ويعيش هؤلاء في الظروف العادية في حالة (مستورة).

- الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى، تضم بين صفوفها عدداً كبيراً من صغار الموظفين الذين يعملون في الوظائف الكتابية والبيروقراطية، كما تضم عدداً من المشتغلين لحساب انفسهم في قطاعات الخدمات والمشروعات الصغيرة، كالموظفين في مكاتب الصحة والمستشفيات والدوائر الحكومية، ومن يعملون في مجال البيع والتوزيع واقسام الحسابات والارشيف في القطاع العام، ومحاصلي الضرائب والرسوم... الخ. وافراد هذه الشريحة على قسط محدود من التأهيل المهني والتعليمي، وهم يمثلون اغلبية الطبقة الوسطى وقاعدتها العريضة، ويعتبرون من ذوي الدخل الثابتة والمحدودة، ولهذا يتسم نمط توزيع دخلهم بغلبة نسبة ما يذهب منه الى الاستهلاك الضروري، حيث ان معدلات ادخارهم ضئيلة جداً، او تكاد تكون معدومة، وكثير من افراد هذه الشريحة اقرب الى حال الطبقة العامة.

ان الطبقة الوسطى بشرائحها الثلاث، طبقة فضفاضة واسعة تستقبل يومياً مواليداً جدد من خارجها. وفي الوقت عينه تفرز في المراحل التاريخية المختلفة بوجوازين متوسطين، يصبح بعضهم بوجوازين تقليديين. ان في الطبقة الوسطى حركة مستمرة بين صعود وهبوط. البرجوازي المتوسط قد يصبح تقليدياً ولكنه قد يصبح برجوازياً صغيراً فقيراً، لان حركة الصراع داخل الطبقة الوسطى وحركة الصراع العام تؤدي الى افلاس الكثيرين منهم وافقراهم. ولهذا لا يجوز الكلام على الطبقة الوسطى باعتبار ان كل واحد فيها يأخذ وضعاً ثابتاً، فليس كل واحد فيها او من ابنائها يحتل موضعاً ثابتاً، وبالتالي نستطيع ان نحكم عليه اليوم، كما نحكم عليه بعد ستة اشهر، وبعد ست سنوات. انها في حركة مستمرة تنمو وتتسع قاعدتها وتختلط

معالم شرائحها. من كان في الشريحة المتوسطة منها يصبح فقيراً، وينضم الى حركة الفقراء منها. ومن كان فقيراً يمكن ان يصبح برجوازيّاً كبيراً من الشريحة المتوسطة، فتصبح له مواقف متذبذبة، ومن كان منها متوسطاً قد يصبح برجوازيّاً غنياً تقليدياً ويصبح مع القوة الرجعية⁽⁴⁹⁾. وعلى اساس ما تقدم يمكننا القول، ان مفهوم الطبقة الوسطى لا يتمتع بذات الصرامة العلمية التي امتلكها مفهوم الطبقة، ولهذا اختلفت الآراء ولم تتفق بين الباحثين بشأنها، حتى على الحد الأدنى مما هو مطلوب وهو اعتبارها طبقة واحدة ام هي طبقات متعددة، ومن حيث كونها مستقلة بذاتها ام انها جزء من طبقات اخرى.

2- مفهوم الطبقة الوسطى في الفكر السياسي الغربي المعاصر، لم تتل الطبقة الوسطى نصيبها من الاهتمام في الفكر السياسي كما نالت المفاهيم الاخرى، وتحديداً الطبقة، وتجلّى ضعف الاهتمام هذا بعدم وجود نظريات وافكار اتخذت من الطبقة الوسطى موضوعاً لها، كما لم يبرز في دراسة الطبقة الوسطى مفكرين كبار اتخذوا منها مجالاً للبحث والتحليل، ففي ما عدا بعض الاسهامات البسيطة (لماكس فيبر) لم تكن هناك اي جهود اخرى تذكر. وبالرغم من المعطيات الواقعية اعلاه سنحاول دراسة الطبقة الوسطى في اطار الفكرين الماركسي والليبرالي، مع ملاحظة ان دراستها في الفكر الماركسي كانت في مرتبة ثانوية بالقياس الى دراسة الطبقة، اما في اطار الفكر الليبرالي فأن دراسة الطبقة الوسطى كان في اطار علاقتها بالبرجوازية التي استخدمت في البداية وبشكل خاطئ لوصف الطبقة الوسطى في المجتمع الرأسمالي. فالطبقة الوسطى تبدو ثمرة من ثمرات البرجوازية.

أ- الطبقة الوسطى في الفكر الماركسي، تؤمن النظرية الماركسية ان الصراع وان كان اساساً بين الطبقتين الرئيسيتين البروليتارية والبرجوازية، الا ان هذا لا يمنع من قيام طبقات اخرى الى جانبهما⁽⁵⁰⁾. وعلى الرغم من انتقاد بعض المفكرين ومنهم (بوتومور) ل(ماركس) على اساس (ان الطبقة الوسطى لم تحظ باهتمام محترم من قبل فكر ماركس الصراع)، بينما بالغ من اهمية الصراع البرجوازي- البروليتاري⁽⁵¹⁾. الا ان دراسات

كثيرة ل(ماركس) تناولت الفئات الوسطى الصغيرة، التي يطلق عليها بالألمانية (Kleiner Mitttel Klasse) الى جانب العمال. وللأسف، فان الترجمات العربية لهذا المفهوم الاوضح والاكثر دقة، اعتمدت النص الفرنسي وهو البرجوازية الصغيرة (Petite Bourgeoisie) دون

النحت الألماني الذي يحدد الموقع بدقة: صغار الطبقة الوسطى⁽⁵²⁾. لقد ورد هذا بشكل واضح في البيان الشيوعي، وفيه يحدد (ماركس) و(إنجلز) دور الطبقات المتوسطة بأنه (أما صغار الصناعين وأصحاب الإيرادات والحرفيون، أي الدرجات السفلى من الطبقة المتوسطة، فيتدهورون إلى صفوف البروليتارية، وذلك لأن رساميلهم الضعيفة لا تسمح لهم باستعمال أساليب الصناعة الكبرى، فيندحرون ويهلكون في مزاحمتهم لكبار الرأسمالين، وذلك لأن مهارتهم الفنية تفقد قيمتها وأهميتها تجاه أساليب الإنتاج الجديدة، وعلى هذه الصورة تتجدد البروليتارية من كل طبقات السكان)⁽⁵³⁾، ومعنى هذا أن الطبقات المتوسطة ليست ثورية في ذاتها، بل أنها، وهي المتعلقة بنظام قديم للأشياء، رجعية في أغلب الأحوال وتسعى إدارة عاجلة التاريخ إلى الوراثة. إلا أنها تستطيع أن تكون ثورية إذا وعت اندماجها الهائل في البروليتارية⁽⁵⁴⁾.

لم يشأ أحد من المفكرين الماركسيين أن يضيف شيئاً على ما قاله (ماركس) في الطبقة الوسطى، حتى ظهر (غرامشي) ليقدّم شيئاً جديداً لمفهوم الطبقة الوسطى، وإن كان بشكل غير مباشر، ف(غرامشي) لا يتحدث عن الطبقة الوسطى ذاتها وإنما عن المجتمع المدني الذي تنمو في أحشائه التكوينات الأولية والأساسية للطبقة الوسطى. فهو يرى مثلاً أن المجتمع المدني إنما هو فضاء للتنافس الأيديولوجي، بعدما ظل لفترة تاريخية طويلة، فضاء للتنافس الاقتصادي. وقد صاغ إلى جانب المجتمع المدني، مفهومه الخاص للمجتمع السياسي، بما هو فضاء للسيطرة السياسية بواسطة القوة والتهديد. لقد استطاع (غرامشي)، أن يبلور لنا بصورة غير مباشرة مفهوم المجتمع المدني الذي يستولد الطبقة الوسطى، في ضوء وعيه بخطورة مؤسسات الدولة الأيديولوجية المانعة لتشكيل هذه الطبقة، وذلك حين تضيف إلى اليات القمع: الجيش والبوليس والمحاكم طرق أخرى من الاقناع، مثل الاعلام والتعليم والاعلان الموجه. وقد درس (غرامشي) فعاليتها في الدول المتقدمة، فوجد أنها تلعب دوراً أساسياً في احباط معركة المجتمع المتمردة من جهة، وابتكار وسائل حديثة تغذي البدائل الزائفة واشكال الاستلاب المختلفة، بما يسمح من استمرار الدولة الطاغية على شعب مسلوب ومسحوق. حدد (غرامشي) مفهومه في ضوء حراك مجموع المنظمات والهيئات المستقلة التي يجب أن تعمل مقابل المجتمع السياسي في البحث عن كيفية الانتقال إلى الديمقراطية لتجاوز

الهيمنة للطبقة الحاكمة، وتوليد الطبقة الوسطى الضامنة لسيادة شيوع الديمقراطية في المجتمع المدني. ومشاركة المثقف وفاعليته في هذا المجتمع. وقد أكد (غرامشي) على دور المثقف والمثقفين كعنصر أساسي للعوي، سواء كانوا يمثلون الفكر التقليدي للمثقف المحافظ أم المجموعات المنتجة الحديثة التي يفرزها المجتمع الصناعي، أم الرؤية الثورية في المجتمع الطبقي. وقد بحث من خلال ذلك في مسألة خلق الإنسان الجديد وتوليد الطبقة الوسطى، لمتابعة مهمة تحرير القوة المنتجة للشعب في حركة رفض مستمرة ومتجددة لأشكال القمع والطغيان وشروط وفاعليات استيلاء السلطات السلطوية في المجتمع المدني⁽⁵⁵⁾.

مما تقدم يتبين لنا أن الفكر الماركسي وأن تباينت بعض الآراء فيه، تعامل مع مفهوم الطبقة الوسطى من خلال موقعها في الصراع الطبقي، وهو يرى ضرورة كسب تأييد أعضاء هذه الطبقة ذات المهارة والعدد الكبير، للطبقة البروليتارية في صراعها الأزلي مع الطبقة البرجوازية.

ب- الطبقة الوسطى في الفكر السياسي الليبرالي المعاصر، على الرغم من أن تسمية (الطبقة الوسطى) حديثة نسبياً، إذ تعود إلى الربع الأخير من القرن الثامن عشر وتحديدًا إلى العام 1775، وقد صاغها الكاتب الإيرلندي (جيمس برادشو) في مؤلفه الموسوم: مشروع التصدي لتهديب الاصواف الإيرلندية إلى فرنسا، إذ عرج الكاتب متناولاً تعبير الطبقة الوسطى بكونها تتوسط موقعاً بين طبقة النبلاء وطبقة الفلاحين في أوروبا⁽⁵⁶⁾. إلا أن تاريخ الطبقة الوسطى أبعد من ذلك كثيراً، إذ يعود إلى عصور ما قبل الميلاد، وتحديدًا إلى زمن الإغريق. فمنذ الإغريق تركت لنا الطبقة الوسطى فكراً غنياً. إذ نجد جذوراً لدور ومفهوم الطبقة الوسطى في هذا الفكر، فعندما أراد (صولون) (640-558 ق.م) إتمام التشريعات القانونية والاقتصادية التي توقف عن تكملتها (دراكون) (661 ق.م) استعان بالطبقة الوسطى لمحاربة النبلاء والقضاء على نفوذهم⁽⁵⁷⁾. وفي خضم هذا الصراع مع النبلاء ظهرت روائع الفكر السياسي الإغريقي المتعلقة بالطبقة الوسطى، وتحديدًا عند (أرسطو) (384-322 ق.م)، فإذا كان أفلاطون قد جعل في الاعتدال سعادة الفرد ونظام الدولة واستقرار السلطان، فإن (أرسطو) عندما نقلها إلى أدبه، حاول أن يثبت أن الفضيلة هي على العموم حد وسط بين افراطين متضادين. وتبعاً لهذه النظرية توضع في السياسة قوة الدولة في الطبقة الوسطى للمواطنين الذين ثروهم كذلك بعيدة عن الثروة الضخمة وعن الفقر المدقع. هؤلاء المواطنون

هم خير الكل لانهم اعقلهم. لا يصيرهم الفقر الى الانتقاص ولا تدفعهم سكرة الثروة الى محاولات الطمع الاعمى الذي يجعلهم في صف المنتفضين. انهم يكفلون للمدينة توازناً قوياً هادئاً يحقق طمأنينتها وسعادتها⁽⁵⁸⁾. ويترتب على ذلك برأي (ارسطو) نتيجة مهمة وهي، ان احسن الدول نظاماً هي التي تكون الطبقات الوسطى فيها اكبر عدداً واعظم قوة من الاغنياء والفقراء. وفي جميع الحالات التي قل فيها عدد افراد الطبقة الوسطى عن الحد الواجب، تغلبت عليها الطبقة التي تفوقها في العدد، سواء اكانت طبقة الاغنياء ام طبقة الفقراء، وتولت بنفسها تصريف الشؤون العامة، واذا ما سيطر الاغنياء على الفقراء، او الفقراء على الاغنياء، لم تستطع هذه الطبقة او تلك ان تقيم دولة حرة⁽⁵⁹⁾.

يعد عصر النهضة الاوربي الحديث، بداية التشكيل الحقيقي للطبقة الوسطى. فقد بدأ تكوين هذه الطبقة مع الثورة التجارية، التي ظهرت بوادرها في هذا العصر واسهمت في تغيير النظام الاجتماعي الذي كان قائماً على وجود طبقتين اساسيتين هما: الطبقة الارستقراطية وطبقة العوام⁽⁶⁰⁾. ان هذا العصر سيشهد تمتع العلاقات الرأسمالية بنوع من النفوذ في المجتمع بتمتع الاقتصاد التجاري المير كنتالي بالصدارة، وقد ادى هذا التحول في المراكز الاقتصادية الى تحول في المراكز الاجتماعية، اذ فقدت طبقة النبلاء مركزها الراجح الذي كانت تتمتع به فيالعصور الوسطى لصالح الطبقة البرجوازية. وكان ذلك يعني ان الاوضاع في اوروبا اخذت تتغير على نحو سريع، فقد تهدم النظام الاقطاعي الذي كان مدعوماً من النظام الملكي، وتحرر الفلاحون من رق الارض ومنحوا حق الملكية، وكان هذا تطوراً اقتصادياً مهماً. واصبح الناس يشعرون بان الارض لم تعد المصدر الوحيد للثروة، وانتعشت التجارة والصناعة، وظهرت الطبقة الوسطى التي اشتغلت بالأعمال التجارية بين اوروبا والعالم الجديد المكتشف حديثاً، وازدياد العلاقات الاوربية بالشرق الغني من ناحية اخرى⁽⁶¹⁾. الامر الذي ادى الى صعود الطبقة الوسطى الى قمة السلم الاجتماعي. وبدأ اعضاء الطبقة الوسطى فرض واقعهم على طابع الحياة الاوربية (السيرورة الاخلاقية، اعتماد فلسفة القوة، ملامح مجتمع السوق القائم على المنافسة لا التعاون)⁽⁶²⁾، لقد كان ذلك يعني ولادة مجتمع السوق الذي سيشكل صورة النظام الرأسمالي، الذي كان قد بدأ بالفعل في ظل صعود الطبقة الوسطى وتنامي سيطرتها لتصبح لها السيادة بالمعنى الاجتماعي-السياسي. هذه التطورات ارتبطت بقيام الثورة الصناعية، التي ادى

اندلاعها في إنجلترا، الى تغير او تطور في العلاقات السوسيو-اقتصادية، استفادت منه البرجوازية لتمارس ادواراً فكرية وسياسية⁽⁶³⁾، ففكرياً برز فلاسفة الانوار او التنوير، ومنهم: (كوندرسيه 1743-1794)، (ديدرو 1713-1784)، (كانت 1724-1804)، (هيوم 1711-1776)، (روسو 1712-1778)، (فولتير 1694-1778)، الذين سيقودون معركة شرسة لتثبيت القيم الجديدة التي يدعون لها ومنها: تقديس العقل والعقلانية، حرية التفكير والتعبير، نقد الدين، قيمة السبب والعلم، الفردية، المساواة.... الخ⁽⁶⁴⁾. وقد مثلت هذه الافكار مرتكزات اساسية للفكر السياسي الليبرالي الذي ستعتمده الديمقراطيات الغربية فيما بعد، فضلاً عن تعبيرها عن التحول الاقتصادي الكبير، الذي يعتمد (الملكية الخاصة) التي تحركها دوافع (المصلحة الخاصة) التي لا يمكن لها ان تتردهر وتنتعش بدون هذه القيم وتحديداً (الحرية) و(الفردية)، فالرأسمالية كنظام اقتصادي ليبرالي، يقوم على الملكية الخاصة لموارد الثروة. اي تملك الافراد لوسائل الانتاج لمصلحة هؤلاء الملاك الافراد. فبدون الملكية الفردية والسوق الحر والانتاج من اجل الربح لا تقوم الرأسمالية. وقد كان نتيجة هذا الجهد العظيم لفلاسفة الانوار ايقاظ الوعي واشعار الناس بالقوة الجديدة الصاعدة وهي البرجوازية، التي يقدمها الباحثون على انها النموذج العالمي للطبقة الوسطى، وبدفع الناس للعمل بهذا الوعي الجديد، وكانت النتيجة، الثورة الفرنسية في عام 1789. التي يعدها الباحثون النموذج الامثل لكل ثورات الطبقة الوسطى، لقد انتشرت شعارات هذه الثورة المتمثلة في: الحرية والاخاء والمساواة، كل ارجاء العالم، واصبحت الاساس الفكري لكل التطورات السياسية التي سيشهدها العالم في اوربا وخارجها. ان هذه الثورة تعد بحق اعظم انجاز سياسي وفكري للطبقة الوسطى⁽⁶⁵⁾. وستعكس اثارها الفكرية المستلهمة من روح فلاسفة الانوار على التقدم العلمي والتكنولوجي الذي سيعرفه العالم في القرن التاسع عشر. واعتبر كثيرون في مجال اقتصاديات التنمية الناشئة ان الطبقة الوسطى كانت القوة المحركة للثورة الصناعية والتنمية الاقتصادية في اوربا في القرن التاسع عشر⁽⁶⁶⁾. وبالدخول الى القرن العشرين بدأت الطبقة الوسطى تحصد ثمار مسيرة طويلة من اثبات الذات اقتصادياً وسياسياً، فقد شهد هذا القرن وتحديداً في نصفه الثاني نمواً لامعاً انتعشت فيه الطبقة الوسطى، وكانت اهم سمات تلك المرحلة، هي تلك المعدلات المرتفعة للنمو الاقتصادي، والمعدلات المنخفضة

للتضخم , والمعدلات المتدنية للبطالة , والارتفاع المستمر في مستوى المعيشة بسبب زيادة حجم الدخول واستقرار احوال التوظيف , واتساع شبكة الضمان الاجتماعي وشمولها لعدد كبير من الفئات الاجتماعية⁽⁶⁷⁾. وعلى الرغم من التراجعات التي اصابته بعض هذه النجاحات بفعل الازمات التي عرفها العالم الليبرالي في العقدين الاخيرين من القرن العشرين, الا ان ذلك لم يكن الا حالة مؤقتة, فقد تنامت الطبقة الوسطى عالميا في القرن الحادي والعشرين وبشكل متسارع, في ضل ظاهرة تطور اقتصادات البلدان ذات الاسواق الناشئة, التي امسى عددها اليوم يناهز 54 دولة, وهي تحصد حوالي 45% من الناتج الاجمالي العالمي, ويتوقع ان تزداد مساهمتها الى 70% من العقد القادم من الزمن, وهي مازالت تستهلك نصف صادرات النفط العالمي, وتهيمن على نصف الصادرات الدولية, وتغطي ديمغرافياً بنحو 80 % من سكان العالم, وتحتفظ بنحو 75% من الاحتياطات الرسمية للعملة الاجنبية, ويتزايد سكانها بواقع ستة ملايين نسمة شهرياً مقابل 300 الف نسمة في العالم الصناعي الاول. وكمثال على ذلك الصين, فقدغنت الطبقة الوسطى فيها من 15% في العام 1990 الى حوالي 62% في السنوات القليلة الماضية, في وقت مازالت الطبقة الوسطى الامريكية لا تشكل سوى 45% من سكان الولايات المتحدة الامريكية. ويعود تطور الطبقة الوسطى في الصين الى دور السوق في نهضة النمو الاقتصادي, ونشوء المدن, وتحول الفلاحين الذين كانوا يعيشون عند مستوى الكفاف الى عمال مصانع بإنتاجية عالية ودخل اعلى, وتوفير مدخرات, ودورهم في تعظيم صادرات الصين الى العالم وخلق المزايا النسبية والقدرة التنافسية للتجارة الصينية⁽⁶⁸⁾.

وهكذا نجحت الطبقة الوسطى في ان تكون الطبقة الرئيسة في المجتمع الانساني, بعد نضال وصراع مرير مع الطبقات الاخرى وتحديداً العليا, وما كان ذلك ليتحقق لو لا ان تيسرت للطبقة الوسطى مجموعة كبيرة من الفلاسفة المتنورين, الذين مثلت افكارهم النور الذي استضاءت به الطبقة الوسطى واهتدت من خلاله الى الوسائل والسبل المثلى لان تحتل الطبقة الوسطى مكانها الطبيعي المتميز في سلم طبقات المجتمع.

ثالثاً: التأسيسات الفكرية للطبقة الوسطى في العراق, كان تأسيس الدولة العراقية الحديثة في مطلع القرن العشرين ايزاناً بأطلاق عملية صنع الطبقة الوسطى, وقد ساعد على ذلك

المكانة المهمة التي بدأت تأخذها فئات الطبقة الوسطى في عملية تشكيل الافكار والقيم في المجتمعات الاوربية الصناعية المتطورة, وبالطبع, فان وجود بريطانيا- صاحبة الثورة الصناعية التي بفعل انجازاتها ولدت الطبقة الوسطى- كدولة احتلال ثم انتداب على العراق, كان هو الاخر عاملاً مضافاً عجل من جهود بناء طبقة وسطى. وبعيداً عن قراءة وتعقب مسيرة الطبقة الوسطى منذ تأسيس الدولة العراقية وحتى اليوم, وهي مسيرة تخللتها لحظات متباينة, بين ولادة وازدهار, لاسيما بعد عقد الخمسينيات من القرن الماضي بفعل تدفق اموال النفط واتساع نطاق التعليم والمدارس وعمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية, وبين لحظات احتضار ان لم يكن موت وذبول بعد العقد الثامن من القرن الماضي الى اليوم, فقد انسحقت الطبقة الوسطى وتبددت انجازاتها التي حققتها على مدار نصف قرن, بفعل الحروب والصراعات الداخلية والخارجية التي كان على الطبقة الوسطى ان تدفع فاتورة حسابها, من دورها ومكانتها التي تراجعت لصالح طبقات اخرى, وكان هذا التراجع سبباً حقيقياً في تراجع احوال البلد في كل المجالات, لكون الطبقة الوسطى القوة الدافعة لكل الانجازات السياسية والفكرية والاقتصادية الرائعة التي عرفها العالم المتقدم في تاريخه الحديث.

1- نشأة الطبقة الوسطى في العراق وتطورها, ترافق ظهور الطبقة الوسطى في العراق مع ظهور دولته الحديثة في عام 1921, ومنذ ظهور نواتها الاولى وحتى اليوم, لم تكف هذه الطبقة من تجديد نفسها ممهدة لظهور طبقات اجتماعية تتناسب وطبيعة المجتمع العراقي المتعدد الاعراف والديانات والقوميات واللغات ... الى الخ, فتبدو من خلال تاريخها انها جدل المجتمع وحاضنته, فمنها ظهرت الشرائح السياسية والعسكرية والتجارية لاحقاً, ليسهم بعضها في قيادة المجتمع العراقي نحو الحروب والتدمير, ويسهم بعضها الاخر في البناء والتعمير, وكما نمت داخل هذه الطبقة العريضة قوة تحديث نمت كذلك الفئات غير القادرة على الاستمرار والديمومة. وما حركتها صعوداً وهبوطاً, حركتها بين الحياة والموت الا عبارة عن نتاج اجتماعي وثقافي وفكري يشخص بداية حادثة المجتمع العراقي⁽⁶⁹⁾. لم تكن حركة الطبقة الوسطى وجهودها نحو تكريس وجودها في الواقع السياسي والاجتماعي العراقي, تجري على وتيرة واحدة, وانما امتازت بعدم الثبات والاستقرار, فقد تراوحت صعوداً وهبوطاً متأثرة بالظروف والوقائع السياسية. فتأثرت في مرحلتها الاولى وهي مرحلة الولادة والتأسيس



بالسياسة البريطانية باعتبارها دولة الاحتلال ثم الانتداب. لقد بدأت هذه السياسة بإيجاد طبقة اجتماعية كسند للاحتلال ثم الانتداب، فلم تجد خيراً من الاقطاع والكومبرادور⁽⁷⁰⁾ التجاري الكبير لتأدية هذا الدور⁽⁷¹⁾. ففيما يتعلق بالاقطاع، لم يكن البريطانيون قد عملوا على تغيير مجرى حياة الاقطاع الذي خلفه الاتراك في العراق، فتماشوا مع الوضع السائد مع استثناءات قليلة لا تخرج عن القاعدة المتمثلة بتثبيت الاقطاع في العراق، فقد ناشد الكولونيل(هاول) في سنة 1919 الحكام السياسيين اثناء عملية المسح التي قامت بها سلطات الاحتلال للأراضي في العراق، ناشدهم ان يتذكروا بان الغرض من الاستقصاء لا ينطوي على خلق حقوق جديدة لبعض الناس، وانما ينطوي على تعيين الحقوق الموجودة وتحديدتها⁽⁷²⁾ اما فئة الكومبرادور فقد تصدرت فئات الطبقة العليا(البرجوازية) من جهة علاقتها بالسلطات البريطانية، التي دعمتها وجعلت منها سنداً لوجودها في العراق، وقد ظهر افراد تلك الفئة كوكلاء للشركات الاجنبية، وبخاصة في مدينة البصرة حينما ظهرت الشركة العالمية لتصدير التمور الى خارج العراق. ومن ذلك الحين ارتبطت مصالح تلك الفئة من البرجوازية مصيرياً مع راس المال الاجنبي⁽⁷³⁾. وفي ظل هيمنة الاقطاع والكومبرادور لم يكن هناك توجهاً سياسياً، لا من قبل البريطانيين ولا من قبل الملك فيصل الاول، في انشاء طبقة وسطى، بيد ان الواقع هو الذي فرض وجود هذه الطبقة. ويمكن ان نشير الى ثلاثة عوامل اساسية، فرضت ظهور الطبقة الوسطى وتشكلها في العراق، وهي⁽⁷⁴⁾:

العامل الاول: ان التشكل الطبقي الذي اطلقه الملك فيصل الاول ملك العراق، اهتم بطبقة محددة هي الطبقة العليا، وكان منطقياً ان يؤدي بصورة تلقائية الى النمو التدريجي لتكوينات طبقية اخرى. كالتبقة الوسطى او الطبقة الدنيا، وذلك على اساس محدودية راس المال الاجتماعي والاقتصادي.

العامل الثاني: يتمثل في انه منذ عصر الملك فيصل الاول، كان المجتمع في حالة استكمال لبنينه الطبقي، واذا كان الملك فيصل الاول قد اسس الطبقة العليا، فان الحركة التلقائية للمجتمع هي التي ادت دوراً أساسياً في تشكيل بنية الطبقة الوسطى. وقد كان الصدام بين القوى المستعمرة والمشاعر الوطنية، هو الظرف التاريخي الذي طور وعي هذه الطبقة، التي ادت دوراً فعالاً في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية.

العامل الثالث: ويتمثل في انه من الصعب فهم تشكيلة الطبقة الوسطى من دون اعطاء اهمية لعلاقتها بكل من الطبقات العليا والدنيا في المجتمع, وذلك لبعدين, الاول, ان هذه الطبقة لم تتبلور بعد, ومن ثم فان فهم الطبقات الاخرى سوف يساعد على فهم حركة هذه الطبقة وفاعليتها. اما البعد الثاني, فيتمثل في ان تشخيص حالة الطبقة الوسطى يكون الوجه الاخر لتشخيص اوضاع الطبقتين العليا والدنيا في المجتمع. وذلك لان, الطبقة الوسطى تستند في تشكيلها الى عنصرين رئيسين, الاول, الهابطون من الطبقة العليا, اما بسبب التطور التاريخي والزمني لهذه الطبقة, او بسبب من افتقاد شروط التكيف مع متطلبات حياة هذه الطبقة. والثاني, الصاعدون من الطبقة الدنيا, الذين توفرت لهم ظروف مواتية للحراك الاجتماعي او الثقافي للانضمام الى بناء هذه الطبقة.

وبعد تشكل الطبقة الوسطى وفقا للعوامل اعلاه, سعت لتعزيز هذا الوجود, ولقد قادت عمليات التحديث في المجتمع العراقي من جراء المركزية في الحكم والتنوع الوظيفي واتساع التعليم وتطور المواصلات وتعميم الثقافة ووسائل الاعلام وتحسن نسبي في الخدمات الصحية المانعة للأوبئة الى زيادة اهمية الطبقة الوسطى, كما توسعت عددياً, لأنها تتغذى او تحصد ثمار العوامل التحديثية اعلاه التي كانت تدفع جزءاً من الطبقة الدنيا الى فوق, اي الطبقة التي تليهم مباشرة. اما الطبقة العليا فلم تتسع عددياً في هذه المرحلة, لان النمو الاقتصادي كان محدوداً فلم يخلق اثرياء جدد بسرعة او بأعداد كبيرة⁽⁷⁵⁾. وكان طبيعياً بفعل هذه الزيادة في الاهمية والعدد ان تتطلع الطبقة الوسطى لدور سياسي في العراق, بيد ان قيام السلطات الملكية بأغلاق السبل كافة امامها لتحقيق هذه التطلعات بالمشاركة السياسية, بل وتعرض اعضاء الطبقة الوسطى للمطاردة والعنف والتنكيل, دفع بأفراد هذه الطبقة للبحث عن وسائل اخرى للتعبير عن شخصيتها وآرائها السياسية, فكانت احداث 14 تموز 1958, التي قامت بها الطبقة الوسطى, فقد كان الضباط جزءاً منظماً ومسلحاً من هذه الطبقة الواعية, يشاركونها الأمها ومشاعرها وتطلعاتها, ويلمسون عن قرب الاوضاع التي كان يعيشها المجتمع العراقي, لذا تصدوا لمواجهة الامر, واستلام زمام المبادرة لتغيير النظام الملكي واستلام السلطة باستخدام القوة واجراء الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية⁽⁷⁶⁾. لقد تمتعت الفئات الوسطى والفقيرة بعد (الثورة) بسلطات واسعة من قمة الهرم الى قاعدته, ساعدها على ذلك

تقويض الملكية الخاصة التي اتبعتها الحكومات العراقية المتعاقبة منذ عام 1958، وسيطرة الدولة على عوائد النفط. ولم تعد الملكية في هذه اللحظة التاريخية اساس التراتب الطبقي، بل اصبحت السيطرة البيروقراطية هي المحدد الاكثر حسماً في هذا التراتب، وبدأ علاقات تحالف جديدة بين افراد الطبقة الوسطى، تضم التجار والمالكين والبيروقراطيين والعسكر. منصهرين جميعاً في بوتقة تنظيم سياسي واحد.⁽⁷⁷⁾ لقد اصبحت الطبقة الوسطى بعد سقوط الملكية هي المسيطرة على السلطة، وفي هذا يقرر (حنا بطاطو) ان انظمة الحكم التي جاءت نتيجة (ثورة) 1958 والانقلابات العسكرية التي تلتها، هي نظم طبقة وسطى، ولكن ليس بالمعنى الضيق القائل بانها عملت صراحة باسم الطبقات الوسطى او انها خدمت، بوعي، مصالح هذه الطبقات الوسطى⁽⁷⁸⁾ ولأثبت هذا، يورد حنا بطاطو عددا من النقاط منها⁽⁷⁹⁾:

اولاً: ان عبد الكريم قاسم والاخوين عارف، وغالبية اعضاء اللجنة العليا للضباط الاحرار، واللجنة الاحتياطية للضباط الاحرار، ولجنة القادة العسكريين لعام 1958، ومختلف قيادات حزب البعث ومجالس قيادة الثورة لعام 1963، واعوام 1968-1977، ينتمون الى عوائل متوسطة او متدنية الدخل.

ثانياً: منذ (ثورة) تموز 1958 وحتى اليوم⁽⁸⁰⁾، نجد ان ابناء الفئات الوسطى لم يكتفوا باحتلال مواقع الدولة الممسكة في المبادرة والقرار، بل انهم بسطوا ما يشبه الاحتكار على المواقع العليا والوسطى في اجهزتها الادارية. ويمكن ادراك المعنى الحقيقي لهذه الوقائع حين نذكر ان تقويض مرتكزات الملكية الخاصة الكبيرة والاستقلالية المالية الفعلية للدولة عن المجتمع بفعل دفع عائدات نفط ضخمة، ادى الى تراجع اهمية علاقة الافراد والفئات بالملكية، بينما ازدادت اهمية السيطرة على جهاز الحكومة، فاصبح الامساك بهذا الجهاز هو المحدد الاكثر حسماً للفعل الاجتماعي، قياساً الى ما مضى.

ثالثاً: ان الظروف التي ولدتها (ثورة) تموز 1958، والانقلابات اللاحقة، كانت الاكثر مؤامة لنمو الطبقة الوسطى. والحق ان مصالح الطبقة الوسطى تغلغل في الدولة بدرجة اعظم من مصالح اي عضو اخر في المجتمع، وان المعطيات الاحصائية - مع الاقرار بعدم دقتها على النحو الذي نتمناه - تنبئ بتحول ملحوظ في المداخل في المدن، منذ 1948، على حساب

الاعمال الكبرى، ولحساب الطبقة الوسطى المعتمدة على الراتب، وايضا، وان يكن بدرجة اقل، لحساب اصحاب الاجور.

وقد ساعد على بروز الطبقة الوسطى اكثر فاكثراً، القفزة الكمية في نسبة المال المتوافر، اذ ارتفعت اسعار النفط اربعة اضعافها في عام 1973، واستمرت بالارتفاع خلال معظم العقد وارتفعت مرة اخرى في 1979، وزادت الاموال المنفقة على التنمية زيادة مذهلة. لقد اوجدت هذه التطورات بنية اجتماعية اقتصادية جديدة، ففي الوقت الذي اضمحلت فيه الطبقة العليا القديمة، فان الطبقة الوسطى، مهنية كانت ام تعليمية، توسعت توسعاً سريعاً. لقد شكلت الطبقة الوسطى حوالي ثلث اجمالي السكان وحوالي نصف السكان الحضريين، وظهر تحليل للبنية المهنية المتغيرة وجود زيادة كبيرة في الطبقة الوسطى، وبالإمكان القول ان المهنيين - اطباء، والمحامين، والمهندسين، والمدرسين، وضباط الجيش، وموظفي الخدمة المدنية، والمستويات الوسطى في القطاعين التجاري والتعليمي - وهم يشكلون طبقة وسطى حقيقة، تضاعفت اعدادهم على نحو سريع⁽⁸¹⁾.

توقفت هذه الانجازات التنموية ذات الاثر الإيجابي الواضح على الطبقة الوسطى فجأة باندلاع الحرب العراقية - الإيرانية في ايلول 1980، وبحلول منتصف الثمانينات، كان من الواضح ان الصراع قد انهى عهداً وبدأ عهداً اخر. ان التدمير المادي للعديد من جوانب القطاع الصناعي في العراق وتدنّي الطاقة التصديرية لنفطه وجه ضربة عنيفة الى برامج التنمية والحراك الاجتماعي الذي كان سمة بارزة له. فالحسائر البشرية وانتقال كل اليد العاملة المتوافرة للمجهود الحربي ادى الى حدوث توترات في نسيج الدولة الاجتماعي والسياسي.⁽⁸²⁾ كان خلع الطبقة الوسطى ابرز مظاهره، لا سيما بعد غزو الكويت وحرّباها او ما اصطلح عليه بحرب الخليج الثانية 1990-1991، ويحدد (فالح عبد الجبار) النتائج الكارثية للحربين، بعد ان يستعرض الارقام الفلكية للخسائر الاقتصادية والاجتماعية والبشرية للعراق فيهما، بقوله (خرج العراق من حرب الخليج الاولى مأزوماً، ومعزواً بعض الشيء، اما بعد حرب الخليج الثانية فقد خرج محطماً ومفقراً)⁽⁸³⁾ ليأتي الحصار الاقتصادي الذي اجهز على بقايا الطبقات الاجتماعية، وفكك بني المجتمع القادرة والمهنية من شرائح الطبقة الوسطى، لتظهر طبقات جديدة نمت كتجار حروب او حزينين مغمورين تحولوا الى قادة ذوي نفوذ واسع في الدولة. لقد

ادى الحصار الاقتصادي الى تحطيم كامل للطبقة الوسطى التي انزلت معظم افرادها الى مستوى الفقر او دونه وفقدت بالتالي ادورها ووظائفها التي مارستها خلال المراحل السابقة⁽⁸⁴⁾. ولم تقتصر الاثار المترتبة على السياسات الخاطئة هذه على البنية الاجتماعية والاقتصادية، وانما امتدت الى وقوع البلاد تحت سيطرة واحتلال الولايات المتحدة الامريكية في عام 2003. فقد شهد المجتمع العراقي بعد احتلاله تحبطاً أمريكياً واضحاً في ادارته، فمن جهة عملت ادارة الاحتلال المدنية الى تسريح اعداد كبيرة من ابناء الطبقة الوسطى من منتسبي وزارات عديدة ذات مهام امنية ومخابراتية وعسكرية واعلامية، الامر الذي زاد من اعباء الطبقة الوسطى ومأزقها في العراق، فضلاً على تدهور الصناعات المحلية (القطاع العام والمختلط والخاص) وتعرثر القطاع الزراعي في ظل ظروف امنية قاهرة، وهو ما خلق فجوة كبيرة لم تستطع اي كتلة من الممكن ان نطلق عليها الطبقة الوسطى او غيرها ان تملئها او تسد ثغراتها. ومن جهة اخرى، في مقابل ذلك، مع ان غالبية العراقيين يعتمدون على الراتب، فان الادارة المدنية الامريكية في العراق بعد الاحتلال حاولت منذ البداية انعاش الطبقة الوسطى، من خلال رفع الرواتب، وتحرير التجارة والاقتصاد، واعتماد برامج لتطوير الاقتصاد المحلي، وتشجيع المشاريع الصغيرة، وتوفير القروض الصغيرة لصغار الحرفين. وعلى الرغم من عشوائية هذه القرارات فأنها ساهمت بتحسين مستوى الدخل لفئات واسعة، وزيادة اعداد موظفي الدولة في محاولة لكسب تأييد فئات اوسع لصالح الوضع الجديد. ومن دون شك فقد ادت هذه السياسة الى اتساع صفوف الفئات الوسطى، غير انها لم تنجح حتى الان في حل اشكالية تبعية الطبقة الوسطى للدولة. وفي مقابل ذلك برزت نواة لطبقة من المستفيدين من الوضع الجديد، وهم نخبة من رجال الاعمال الذين تراكمت ثرواتهم خلال العقدتين السابقتين، وظهر موجة الاثرياء الجدد (طبقة برجوازية) التي تمتلك المال والنفوذ. واستمر بعض كبار موظفي الدولة في عمليات الفساد المالي والاداري كممارسة ناتجة عن غياب الردع المطلوب، مما ادى الى عدم وضوح السياسة الاقتصادية، وتباين الفوارق المادية بين شرائح المجتمع، وهو ما ادى في النهاية، الى اختلال المصالح الاجتماعية، فضلاً عن استمرار ضumor الطبقة الوسطى في العراق.⁽⁸⁵⁾

وفي محاولة لمعرفة حجم الطبقة الوسطى في العراق حالياً، يقدر الخبير الاقتصادي العراقي (مظهر محمد صالح)⁽⁸⁶⁾، ان الطبقة الوسطى تشكل 60% من الشعب العراقي، موزعة بين الفئات الثلاث على النحو الآتية⁽⁸⁷⁾:

الطبقة الوسطى العليا: وتمثل حوالي 15% من اجمالي الطبقة الوسطى، وهم رجال الاعمال وكبار موظفي الدولة والتكنوقراط واصحاب المهن الحرة من صناع السوق. اذ يزيد متوسط دخل الفرد فيها على (12) الف دولار سنوياً. كما ان مجموع الدخل الاسري السنوي لهذه الطبقة 50-60 الف دولار.

الطبقة الوسطى المتوسطة: وتمثل السواد الاعظم من موظفي الدولة وشرائح مشابحة، تعمل في نشاط السوق من مهندسين وفنيين واداريين وشريحة محدودة من المتقاعدين وغيرهم بنسبة 50% من اجمالي الطبقة الوسطى. وان متوسط الدخل السنوي للفرد فيها هو بنحو (7) الاف دولار، وان دخل الاسرة السنوي لهذه الطبقة هو ما بين 30-35 الف دولار.

الطبقة الوسطى الدنيا: فهي تمثل صغار الموظفين والشرائح العاملة في السوق المماثلة لها من الشغيلة وبعض فئات المتقاعدين والعاملين من ذوي المهارات المحدودة ويمثلون نحو 35% من الطبقة المتوسطة. ويبلغ متوسط دخل الفرد السنوي بنحو (5) الاف دولار، واجمالي الخل السنوي الاسري 20-30 الف دولار. وهي تعيش فوق خط الفقر، بمعنى انها تمتلك مرونة بنسبة 75% في الحصول على المأكل والملبس والمأوى والتعليم والصحة.

2- الخصائص الفكرية للطبقة الوسطى في العراق، ان تقييم نشوء الطبقة الوسطى في العراق في مطلع العشرينات من القرن الماضي ومراحل التطور اللاحقة وحتى تدهورها في اواخر ذلك القرن ومن ثم محاولات اعادة تشكيلها في مطلع القرن الحادي والعشرين، تقتضي معرفة الخصائص التي ارتبطت بها، وميزتها عبر هذه المسيرة الطويلة. ومن اهمها:

أ- تختلف نشأة الطبقة الوسطى في العراق عن تلك التي عرفت اوروبا، فالطبقة الوسطى في المجتمعات الاوربية كانت قد نشأت في رحم الانتاج القطاعي كطبقة جديدة تحمل علاقات انتاج رأسمالية متناقضة تماماً لعلاقات الإنتاج السائدة، ولم يكن ذلك موجوداً في العراق، فعند تأسيسه لم يكن العراق قد تملك طبقة أرستقراطية في المعنى الذي كان سائداً في اوروبا، حيث كان الملك الحاكم في العراق لم يملك سوى راتبه ومخصصاته التي كان يستلمها من الدولة، ولم

يكن اقطاعياً، ولم يملك اراضي زراعية واسعة، ولم تكن حاشيته والذين ساعدوه في الحكم من الاقطاعيين، بينما كان ملوك اوربا على راس الاقطاعيين، وكانت اقطاعيات الملوك اوسع الاقطاعيات قاطباً، وتخضع لهم حاشيتهم من نبلاء الاقطاع، هذا فضلاً عن ان نظام ملكية الاراضي في العراق لم يكن مرتبطاً برجال الدين ابدأً، فلا توجد سلطات ثيوقراطية تخول رجال الدين التدخل في النظام الاقتصادي والسياسي للدولة، كما كان يفعل باباوات وكاردينالات ونبلاء الاقطاع. وحتى المؤسسة العسكرية في الدولة التي كانت تحت قيادة الملك، فقد كانت تستلم راتبها من وزارة الدفاع، وكانت شؤونهم مرتبطة بتلك الوزارة، بينما في المجتمع الأرستقراطي الاقطاعي الاوربي كان الفرسان ومؤسستا العسكر والكنيسة وبارونات الاقطاع ملتزمة عضوياً تحت سلطة الملوك⁽⁸⁸⁾.

ب- ان الطبقة الوسطى هي طبقة ثورية، انها صانعة الاحداث الكبرى في تاريخ العراق السياسي الحديث، وكمثال على ذلك، يقرر (حنّا بطاطو)، ان الفئة العليا من الطبقة الوسطى هي التي قامت (بثورة) 1958/7/14، وان كل البيان السياسي والاجتماعي للدولة العراقية بعدها كان حقبة الطبقة الوسطى⁽⁸⁹⁾.

ج- ان الدولة العراقية هي التي انشئت الطبقة الوسطى وهي التي دعمتها وهي التي اضعفتها ايضاً. وان مأزق الطبقة الوسطى العراقية الحقيقي يكمن في انها صنيعة الدولة، وهو ما جعلها تابعة للدولة دوماً، فهي لم تكن في يوم من الايام وليدة الصراع في الدولة او مع الطبقة العليا⁽⁹⁰⁾.

د- ان الطبقة الوسطى العراقية لم تكن كتلة صوانية ابدأً، فالفئات الوسطى غير متجانسة لا من ناحية التعليم ولا المهنة ولا الدخل ولا درجة التمدن، ناهيك عن التوجه الايديولوجي والانحيازات السياسية الضيقة. انها طبقة مكونة مثلاً من فئات تعتمد التعليم الحديث (اي حديثة) واخرى تعتمد الحرف (اي تقليدية)، وتندرج هذه الفئات الى مراتب عليا ووسطى ودنيا، وتنشطر مكوناتها على اسس اثنية ودينية وطائفية تتقاطع معالمايزات الاجتماعية، لهذا اصبحت مرتعاً للتنشيط والانشطار والاحتراپ⁽⁹¹⁾.

هـ- ان الطبقة الوسطى العراقية، او ان الشطر الاعظم منها، يعتمد على الراتب ويعمل في اجهزة الدولة. ومن المعروف ان الفئات المعتمدة على الرواتب الحكومية اكثر تضرراً بما لا

يقاس عن الفئات المعتمدة على الملكية، رغم وجود تجاور بين الاثنين في الوجود، في فترات الازمة الاقتصادية وبخاصة النمو المرعب للتضخم الفائق. ومن المعروف اقتصادياً ان اعتماد الطبقة الوسطى على الراتب، يجعلها تقف على تلة رمال متحركة، في البلدان ضعيفة التصنيع او المعتمدة على انتاجية النفط، اي ارتفاع الانتاجية الريعية لا الانتاجية الفعلية. وكمثال على ذلك، ما جرى في العراق بعد حرب الخليج (1991)، ان بالوسع التصور ان الشرائح الدنيا ذات الرواتب في هذه الطبقة قد تدهورت تدهوراً كبيراً بعد هذه الحرب، وان كتلاً منها قد تحولت الى فئات رثة⁽⁹²⁾.

و- ان الطبقة الوسطى في العراق تمتاز بالهشاشة والضعف، رغم كبر حجمها امام جيروت الدولة، وذلك بفعل عاملين رئيسيين، يشير الاول منها الى ان الطبيعة المهزوزة، المتقلبة للاقتصاد الريعي-الدولي، لا تسمح باطراد نمو هذه الطبقات، بل يؤدي، عند نقاط معينة، الى اغتيال مراتب واسعة منها، وانحدار الفئات المعتمدة على الراتب منها انحداراً شديداً الى مرتبة بروليتارية متعلمة، تحمل تطلعات الطبقات الوسطى الحديثة (بفعل التعليم) وتعجز عن تلبية هذه التطلعات في سوق العمل المتخخم⁽⁹³⁾. اما الثاني فيشير الى ان الطبيعة الامنية الطاغية للدول العراقية منذ التأسيس والى الان استوعبت القسم الاكبر منها، فأصبحت هذه الطبقة الاشد تعلقاً من سواها بالدولة الامنية وهي المحرومة من الملكية الكبيرة اصلاً (راسماً او عقاراً) كمصدر مستقل للدخل⁽⁹⁴⁾.

3- ضرورات احياء الطبقة الوسطى في العراق، ان الازمات والمشاكل التي عصفت، وتعصف بالعراق، نظاماً ومجتمعاً، تجعل من احياء الطبقة الوسطى وتهيئة المجال امامها لممارسة ادواراً اكبر ضرورة ملحة للأسباب الآتية:

أ- ان التراتبية الاجتماعية للطبقة الوسطى بالنسبة الى المهن والقطاعات التي تمثلها تجعلها اكثر انفتاحاً في اداء الادوار بمختلف صنوفها، من دون حساسية فئوية واثنية وايدولوجية، بل هي الطبقة الأكثر حمايةً وتحصيئاً حيال العصبية العشائرية في العمل السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وهذه الحماية وهذا التحصين سيمنحانها قوة وتفوق ولاسيما في الوسط السياسي، الذي يتطلب قيادةً ودوراً واضحاً لاقتدار وتحمل المسؤولية⁽⁹⁵⁾.

بـ أكثر القوة السياسية العراقية تدخل السياسة بدفع من عوامل سياسية وعرقية وايدولوجية، وفي كل هذا الدفع تراهن على عاملها هذا (أي على عامل واحد) بينما الطبقة الوسطى تدخل من عوامل جمعية أكثر انتشاراً وتغلغلاً، تتوزع على ارتكازات سياسية (تكنوقراطية) واقتصادية (مؤسسات ومصالح وورش عمل ومراكز علمية وتكنولوجية وحثية وحرف فردية واختصاصية) وكذلك على ارتكازات اجتماعية (منظمات وجمعيات ونوادي مختلفة الاغراض الاجتماعية) وهذا الانتشار والتغلغل الشامل يجعلها أكثر جاذبية لدى الطبقات الأخرى، والتي تجتهد من مصلحتها ومصلحتها منحها الثقة المطلوبة كي تدير العملية السياسية والاقتصادية بطمأنينة وامان، واعتباراً من شيوخ المحرك المهني والاجتماعي ووسيطته بين الطبقات، وبعيداً عن العوامل الطبقية والفئوية والعرقية ولأيدولوجية التي تغلب عليها الحسابات والمصالح الطبقية، والتي تجعلها اسيرة لتلك العوامل والحسابات في التعامل السياسي والاقتصادي⁽⁹⁶⁾.

جـ ان الطبقة الوسطى بحكم حصولها على تعليم جيد ومعيشة كافية تكون اقرب وايسر الى الايمان بالقيم الديمقراطية، لان التعليم يوسع مدارك الانسان، ويُعينه على فهم الحاجة الى قواعد التسامح وابتعاده عن التطرف، وتلك ممارسات ديمقراطية. وان المستوى المعاشي الكافي يدفع الفرد الى الاهتمام بالتعليم والثقافة التي تُزيد من قدرته على تعددية الاختيارات. بمعنى تمتعه بالحرية الفردية والاستقلالية، وهي من المرتكزات الفكرية للديمقراطية⁽⁹⁷⁾. يرى (بارنغتون) مور جونيور في كتابه: الاصول الاجتماعية للديمقراطية والدكتاتورية (ان البنية الاجتماعية التي تنتج طبقة وسطى واسعة هي الأكثر استعداداً للانتقال الى الديمقراطية، الطبقة الوسطى = الديمقراطية)⁽⁹⁸⁾.

دـ ان الطبقة الوسطى هي مصدر للأفكار والآراء الجديدة، وهي تتدرب على المهارة السياسية وتزيد من المشاركة السياسية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فان الطبقة الدنيا اذ ما تهيأت لهاظروف التعليم الجيد والمستوى المعاشي المزدهر، تصبح قادرة على البدء بحراك اجتماعي الى اعلى والوصول تدريجياً الى طبقة وسطى. لذلك فان الطبقة الوسطى تسعى الى المشاركة في السلطة، وهي المصدر التاريخي للديمقراطية الحديثة⁽⁹⁹⁾. ان قراءة موضوعية لواقع حال الطبقة الوسطى في العراق اليوم، تكشف بوضوح انها تعاني من معضلات حقيقية، تجعلها ابعد ما يكون على ان تكون الطبقة الرئيسة في المجتمع العراقي على الرغم من حجمها الكبير، ويبدو

ان الظروف الامنية الصعبة التي يمر بها العراق حالياً، واعتماد فئاتها الثلاث الكلي على الدولة من خلال الراتب، فضلاً على الاختلالات البنوية والتشوهات الحقيقية التي يعاني منها الاقتصاد العراقي، تحول جميعها من ولادة فعلية لطبقة وسطى مؤثرة في الوسط السياسي والفكري العراقي.

الخاتمة

تستمد الطبقة الوسطى وجودها المعاصر من مجموعة قيم وافكار عديدة، مارست في الماضي، وتمارس اليوم، دور توجيه وادارة وحتى تحكم في مجمل النشاط السياسي والاقتصادي والفكري الذي يمارسه المجتمع الانساني. ان افكار مثل الديمقراطية والحرية والفردية والعقلانية وغيرها، تبدو اليوم الاكثر استخداماً وتداولاً، وهي تمثل بمجموعها منظومة القيم والافكار التي مهدت لولادة الطبقة الوسطى وازدهرت بفعل صعودها وارتفاع شأنها في اوربا والعالم الصناعي برمتها. وعلى الرغم من حديث البعض عن دخول الطبقة الوسطى في مرحلة ذبول واضمحلال، استناداً للالزامات التي يعاني منها الاقتصاد العالمي، والتي ادت الى تراجع في نظام الحقوق والامتيازات التي تنعم بها افراد فئاتها الثلاث لفترة طويلة، خلال القرن العشرين تحديداً، الا ان ذلك، في تقديرنا، لا يبدو كافياً للحديث عن زوال بل وحتى تراجع في مكانة ودور الطبقة الوسطى على مستوى العالم بأكمله. قد تكون فعلاً مكانتها الاقتصادية تراجعت بفعل الالزامات الاقتصادية العالمية، ولكن مكانتها السياسية والفكرية لا زالت مؤثرة، بل مهيمنة على الانساق الفكرية والابعاد السياسية العالمية. وربما العالم اليوم، ولا سيما في منطقتنا العربية، اكثر احتياجاً من اي وقت مضى الى افكار الوسطية والاعتدال التي تنمى في وجودها مع وجود الطبقة الوسطى، مع تصاعد موجة التطرف والكراهية وما انتجته من عنف يضرب العالم من اقصاه الى اقصاه، وسيبدو اي جهد في المنطقة العربية والشرق الاوسط عموماً يتجه الى احياء الطبقة الوسطى وتعزيز وجودها ودورها مرحب به لإعادة الاعتبار الى دولها التي فقدت بفقدانها للطبقة الوسطى دورها الايجابي على الساحة العالمية.

1. السيد الحسني، علم الاجتماع السياسي: المفاهيم والقضايا، الدوحة، دار قطري بن الفجاءة، 1980، ص 80.
2. خليل احمد خليل (اعداد)، معجم المصطلحات الاجتماعية، ط 1، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1995، ص 270.
3. نغلأعن: اندرو جرانث، الاشتراكية والطبقات المتوسطة، ترجمة فريد مصطفى، القاهرة، الدار القومية للطباعة، 1963، ص

4. المصدر السابق نفسه، ص 11.
5. حنا بطاطو، العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، ترجمة عفيف الرزاز، الكتاب الاول، ط1، طهران، منشورات فرصاد، 2005، ص 23.
6. علي حسني الخربوطلي، المجتمع العربي، الجيزة، مؤسسة المطبوعات الحديثة، 1959، ص 118-119.
7. الهايتوس، هو انساق من الاستعدادات المستدامة والقابلة للنقل. انما ثمينية، قابلة، مسبقاً، للاشتغال بوصفها بنى مُبينة، أي باعتبارها مبادئ مولدة ومنظمة لممارسات وتمثلات يمكن لها، موضوعياً، ان تتأقلم مع هدفها، من دون افتراض رؤية واعية للغايات والتحكم الصريح في العمليات الضرورية من اجل بلوغها. للمزيد ينظر: دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، ط1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2007، ص 142.
8. حمد موسى بدوي، تحولات الطبقة الوسطى في الوطن العربي، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2013، ص 78.
9. المصدر السابق نفسه، ص 9.
10. دنيس كوش، مصدر سبق ذكره، صص 134-135.
11. المصدر السابق نفسه، ص 143.
12. علي حسني الخربوطلي، مصدر سبق ذكره، ص ص 122-123.
13. احمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت، بيروت، مكتبة لبنان، 1997، ص 411.
14. علي حسني الخربوطلي، مصدر سبق ذكره، ص 123.
15. المصدر السابق نفسه، ص 119.
16. نقلاً عن: جان بير كوت وجان بير منوييه، عناصر من اجل علم اجتماع سياسي، ترجمة انطون حمصي، القسم الاول، دمشق، وزارة الثقافة، 1994، ص ص 146-147.
17. اندرو جرانت، مصدر سبق ذكره، ص 13.
18. جان بير كوت و جان بير منوييه، مصدر سبق ذكره، ص 144.
19. جعفر نجم نصر، المعرفة الدينية عند عبد الكريم سروش، مجلة دراسات اجتماعية، بغداد، بيت الحكمة، العدد 24، 2010، ص 136.
20. لبنين، الثقافة والثورة الثقافية، ط1، موسكو، دار التقدم، 1967، ص 91.
21. قباري محمد اسماعيل، قضايا علم الاجتماع الماركسي، الاسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977، ص 40.
22. فريدة جاسم المندلاوي، النظرية الصراعية في مجتمع متغير، مجلة دراسات اجتماعية، بغداد، بيت الحكمة، العدد 23، 2010، ص 78.
23. ماركس وانجلز، بيان الحزب الشيوعي، موسكو، دار التقدم، د.ت، ص ص 40-41.
24. لبنين، الدولة، موسكو، دار التقدم، 1967، ص 11.
25. ماركس و انجلز، بيان الحزب الشيوعي، مصدر سبق ذكره، ص 41.
26. المصدر السابق نفسه، ص 41.
27. المصدر السابق نفسه، ص 53.
28. المصدر السابق نفسه، ص 65.
29. المصدر السابق نفسه، ص 68.
30. عبد السلام حيمر، في سوسيولوجيا الثقافة والمثقفين، ط1، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2009، ص 135.
31. هاني شكر الله، الطبقة ومثلوها السياسيون، ضمن كتاب: جيوفري نويل سميت وكيتلين هور واخرون، غرامشي وقضايا المجتمع المدني، ط1، القاهرة، مركز البحوث العربية، 1991، ص 225.
32. عبد الفتاح ابراهيم، الاجتماع والماركسية، بيروت، بيروت، دار الطليعة، 1980، ص 80.

33. أكرم عدني, سوسولوجيا الدين والسياسة عند ماكس فيبر, ط1, بيروت, منتدى التعارف, 2013, ص 70.
34. احمد موسى يدوي, مصدر سبق ذكره, ص 64.
35. فالح عبد الجبار, الطبقة, التاريخ, المجتمع. نظرة في مصادر منهج بطاطو, ضمن كتاب: اسحاق نقاش وآخرون, المجتمع العراقي, حفریات سوسولوجية في الانيات والطوائف والطبقات, ط1, بغداد- بيروت, معهد الدراسات العربية, 2006, ص141
36. أكرم عدني, مصدر سبق ذكره, ص ص 70-71.
37. مشحن زيد محمد التميمي, النخبة السياسية ورأسمالية الدولة العراقية للفترة 1968-2003, مجلة آداب المستنصرية, بغداد, الجامعة المستنصرية-كلية الآداب, العدد60, 2013, ص 523.
38. بوزيدي رجاء, النخبة النسوية المهنية بين الواقع السوسيوثقافي ومتطلبات التنمية, اطروحة دكتوراه غير منشورة, جامعة ابي بكر بالقاد-تلمسان-, كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية, 2015, ص 35.
39. عبد الرضا الطعان وآخرون, مدخل الى الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر, الجزء الثاني, بغداد, جامعة بغداد-كلية-العلوم السياسية, د.ت, ص 89
40. بوزيدي رجاء, مصدر سبق ذكره, ص ص 32-33.
41. مشحن زيد محمد التميمي, مصدر سبق ذكره, ص ص 526-528.
42. رمزي زكي, الليبرالية الجديدة تقول: وداعاً.. للطبقة الوسطى, مجلة عالم الفكر, الكويت, المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب, المجلد 25 العدد2, 1996, ص 37.
43. حنا عبود, نظرة مغايرة في الطبقة الوسطى وتراثها, مجلة حوار العرب, بيروت, مؤسسة الفكر العربي, العدد12, 2005, ص 9
44. ستار نوري العبودي, المجتمع العراقي في سنوات الانتداب البريطاني, ط1, بغداد, مؤسسة دار الكتاب الاسلامي, 2006, ص145.
45. اسامة الغزالي حرب, الاحزاب السياسية في العالم الثالث, الكويت, المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب, 1987, ص 53.
46. فايز سارة, الطبقة الوسطى وتحدياتها في سوريا, مجلة حوار الفكر, بيروت, مؤسسة الفكر العربي العدد 10, 2005, ص 46.
47. الامم المتحدة للجنة الاقتصادية والاجتماعية لغرب اسيا(ايسكوا), الطبقة الوسطى في البلدان العربية, بيروت, 2014, ص 24.
48. رمزي زكي, مصدر سبق ذكره, ص ص 37-38.⁴⁸
49. توفيق المديني, الطبقة الوسطى العربية. من الريادة الى الانهيار, مجلة حوار العرب, العدد 10, مصدر سبق ذكره, ص ص 35-36.
50. شمران حمادي, اصل التفاوت في الاتجاهات بين الناس, مجلة العلوم السياسية, جامعة بغداد كلية العلوم السياسية, العدد 47, 2008, 24-26..
51. نقلاً عن:-معن خليل عمر, نقد الفكر الاجتماعي المعاصر, ط1, بيروت, دار الافاق الجديدة, 1982, ص 72.
52. فالح عبد الجبار, الطبقة, التاريخ, المجتمع, مصدر سبق ذكره, ص 138.
53. ماركس وانجلز, بيان الحزب الشيوعي, مصدر سبق ذكره, ص 50.
54. جان بير كوت وجان بير منوييه, مصدر سبق ذكره, ص 153.
55. قصي الحسين, دور الديمقراطية في بناء الطبقة الوسطى, مجلة حوار العرب, العدد 10, مصدر سبق ذكره, ص 61.
56. مظهر محمد صالح, ماهي الطبقة الوسطى, مجلة حوار. بغداد, المركز العراقي للتنمية والحوار الدولي, العدد 2014.
57. ابو الزيد علي الحيت, تطور الفكر السياسي, القاهرة, الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر, 1970, ص ص 16-17.

58. ارسلو طاليس، السياسة، ترجمة احمد لطفي السيد، الرياض-بيروت، منشورات الفاخرية بالاشتراك مع دار الكتاب العربي، د.ت، ص 52-53
59. ول ديورانت، قصة الحضارة، حياة اليونان، الجزء 7، مجلد 2، ترجمة محمد بدران، بيروت، دار الجليل، 1988، ص 512.
60. عطا بكري، الديمقراطية في التكوين، بيروت، بيروت، دار العلم للملايين، 1952، ص 52.
61. مفيد الزبيدي، موسوعة تاريخ اوربا الحديث والمعاصر، ج 1، عمان، دار اسامة للنشر والتوزيع، 2004، ص 400.
62. ياسر قنصوه، الليبرالية-اشكالية مفهوم، القاهرة، رؤية للطباعة والنشر، 2008، ص 85-86.
63. قباري محمد اسماعيل، مصدر سبق ذكره، ص 53.
64. معن خليل العمر، معجم علم الاجتماع المعاصر، نابلس، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2000، ص 345.
65. حنا عبود، مصدر سبق ذكره، ص 12.
66. الامم المتحدة، مصدر سبق ذكره، ص 23.
67. رمزي زكي، مصدر سبق ذكره، ص 39.
68. مظهر محمد صالح، مصدر سبق ذكره، ص 68.
69. عبد الزهرة الركابي، الطبقة الوسطى في العراق، هل تولد من جديد، مجلة حوار العرب، العدد 10، مصدر سبق ذكره، ص 5.
70. كومبرادور لفظه اسبانية الاصل، وتعني المشتري. والكومبرادور، احدى مراتب الرجوازية التي اقتصر تكوينها على البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة، او المتخلفة بوجه عام. وقد بدأ استخدام لفظه الكومبرادور كمصطلح اجتماعي خاص منذ اواخر التاسع عشر، واطلق على فرد او مجموعة افراد ممن قاموا بدور الوكيل لشركة او مؤسسة اجنبية. ينظر، ستار نوري العبودي، مصدر سبق ذكره، ص 141.
71. عامر حسن فياض، جذور الفكر الاشتراكي والتقدمي في العراق، ط1، بيروت، دار ابن رشد للطباعة والنشر، 1980، ص 15.⁷¹
72. المصدر السابق، ص 15.
73. ستار نوري العبودي، مصدر سبق ذكره، ص 141.
74. نبيل عمران موسى الخالدي، الطبقة الوسطى في العراق تحليل سوسيولوجي، ط1، العراق-الديوانية، دار نيبور، 2015، ص 134-135.
75. رهبة اسودي حسين، المقتف والسلطة في العراق 1921-1958، ط1، بغداد، وزارة الثقافة- دار الشؤون الثقافية العامة، 2013، ص 289.
76. حسن عودة ابو الهيل، اسس قيام الطبقة الوسطى في العراق، اطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية العلوم السياسية، 2014، ص 216.
77. احمد موسى بدوي، مصدر سبق ذكره، ص 106.
78. حنا بطاطو، التحليل الطبقي والمجتمع العراقي، في اسحاق نقاش وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص 25-26.
79. المصدر السابق، ص 26.
80. نشر هذا البحث عام 1977 في كتاب صدر بالانكليزية بعنوان المجتمع العربي عن الجامعة الامريكية في القاهرة.
81. فيفي مار، تاريخ العراق المعاصر، الجزء الثاني، ترجمة مصطفى نعمان احمد، القاهرة، مؤسسة مرتضى منصور للكتاب العراقي، 2009، ص 48-123.
82. المصدر السابق، ص 78.
83. فالح عبد الجبار، الدولة، والمجتمع المدني والتحول الديمقراطي في العراق، مصدر سبق ذكره، ص 168.
84. حسن عودة ابو الهيل، مصدر سبق ذكره، ص 248.
85. نبيل عمران موسى الخالدي، مصدر سبق ذكره، ص 172-173.

86. مستشار رئيس الوزراء العراقي الحالي الدكتور حيدر العبادي، ونائب مدير البنك المركزي العراقي سابقاً.
87. مظهر محمد صالح، مصدر سبق ذكره، ص 13-14.
88. نبيل عمران موسى الخالدي، مصدر سبق ذكره، ص 108-115.
89. حنا بطاطو، التحليل الطبقي والمجتمع العراقي، مصدر سبق ذكره، ص 32.
90. نبيل عمران موسى الخالدي، مصدر سبق ذكره، ص 158.
91. فالح عبد الجبار، الدولة، المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في العراق، القاهرة، مركز ابن خلدون للدراسات الانثماثية-دار الامين للنشر والتوزيع، 1995، ص 125.
92. المصدر السابق نفسه، ص 126.
93. فالح عبد الجبار، الطبقة، التاريخ، المجتمع نظرة في مصادر منهج بطاطو، مصدر سبق ذكره، ص 146.
94. عامر حسن فياض، العراق وشقاء الديمقراطية المنشودة، ط 1، عمان، دار اسامة للنشر والتوزيع، 2009، ص 130.
95. عبد الزهرة زكي، مصدر سبق ذكره، ص 54.
96. المصدر السابق نفسه، ص 54.
97. عبد العظيم جبر حافظ، التحول الديمقراطي في العراق الواقع. والمستقبل، العراق، مؤسسة مرتضى منصور للكتاب العراقي، 2009، ص 179.
98. نقلاً عن: المصدر السابق نفسه، ص 12 هـ.
99. المصدر نفسه، ص 179.